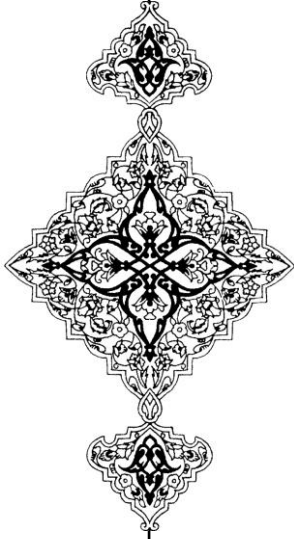


الأصداء اللاحقة على المقتل



أصداء المقتل في عالم الغيب

نحتاج في فقهننا للتصوص الغيبية الواردة في حزن المخلوقات على الحسين عليه السلام إلى علم خاص، فهي من أنباء الغيب التي جاد بها أهل البيت عليهم السلام لتعريفنا بمقامه عليه السلام وعظم مصيبته، وفهمها يفتقر إلى دراسة معمقة في الألفاظ والمعاني، إلا أنها تعبر بوضوح عن جوهر المصيبة وأصدائها في العالم الآخر.

إن الإمام الصادق عليه السلام وقف على قبره الشريف وعبر عن تلك الأصداء بهذه الكلمات الكبيرة والصورة الخاشعة التي تستحق الكثير من التأمل: "أشهد أنّ دمك سكن في الخلد، واقشعرت له أظلة العرش، ويكى له جميع الخلائق، وبكت له السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن، ومن يتقلب في الجنة والنار من خلق ربنا، وما يرى وما لا يرى"^(١).

أما إمام العصر عليه السلام فكلماته جديرة بالتأمل، فهو يعبر فيها عن أول أصداء المقتل في عالم الغيب، وردة الفعل التي عقبها سقوط الحسين عليه السلام من جواده، وكان أول الأمور انطلاق ناعٍ لقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنعي ولده إليه، ثم تترادف سائر الأصداء المفجعة.

يقول عليه السلام: "وقام ناعيك عند قبر جدك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فنعاك إليه بالدمع الهطول، قائلاً: يا رسول الله، قتل سبطك وفتاك، واستييح أهلك وحماك،

(١) راجع الكافي (٥٧٦/٤)، ومن لا يحضره الفقيه (٥٩/٢)، وتهذيب الأحكام (٥٥/٦)، ووسائل الشيعة (٤٩١/١٤)، وبحار الأنوار (١٥٢/٩٨ و ٢٦٦)، وكامل الزيارات ص (١٩).

وسُبي بعدك ذراريك ، ووقع المحذور بعترتك وبنيك ، فنزع الرسول الرداء ، وعزاه بك الملائكة والأنبياء ، وفُجعت بك أمك فاطمة الزهراء ، واختلفت جنود الملائكة المقربين تعزى أباك أمير المؤمنين ، وأقيمت عليك المآتم في أعلى عليين ، تلطم عليك فيها الحور العين ، وتبكيك السموات وسكانها ، والجبال وخزانها ، والسحاب وأقطارها ، والأرض وقيعانها ، والبحار وحيثانها ، ومكة وبنيانها ، والجنان وولدانها ، والبيت والمقام ، والمشعر الحرام ، والحطيم وزمزم ، والمنبر المعظم ، والنجوم الطوالع ، والبروق اللوامع ، والرعود القعاقع ، والرياح الزعازع ، والأفلاك الروافع" (١).

وأجابت الملائكة طيبة لأصدقاء الحزن النبوي ، وراحت الأحزان تنتشر في عالم الإمكان ، فرابطت على الحزن وعكفت على الجزع لسيد الشهداء عليه السلام.
 ❖ في أمالي الصدوق بسنده إلى أبان بن تغلب قال : قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : إن أربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع الحسين بن علي عليه السلام فلم يؤذن لهم في القتال ، فرجعوا في الاستئذان ، وهبطوا وقد قتل الحسين عليه السلام فهم عند قبره شعث غبر بيكونه إلى يوم القيامة ، ورئيسهم ملك يقال له منصور (٢).

(١) راجع بحار الأنوار (٢٤١/٩٨ و ٣٢٢).

(٢) راجع أمالي الصدوق ص (٦٣٨) ، والبحار (٢٢٠/٤٥).. تكرر المؤدى في روايات أهل البيت عليهم السلام ، في كامل الزيارات ص (٨٥ و ١٨٩) ، والبحار (٢٢٣/٤٥) و (٥٥/٩٨) ، ووسائل الشيعة (٤٢٠/١٤) ، ومستدرک الوسائل (٢٤٢/١٠) ، وثواب الأعمال ص (٨٨) : بسند إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : أربعة آلاف ملك شعث غبر بيكون الحسين إلى يوم القيامة ، فلا يأتيه أحد إلا استقبلوه ، ولا يمرض أحد إلا عادوه ، ولا يموت أحد إلا شهده.

❖ وفي كامل الزيارات مسنداً إلى إسحاق بن عمار أنه قال لأبي عبد الله عليه السلام: إني كنت بالحيرة ليلة عرفة، وكنت أصلي، وثمر نحو من خمسين ألفاً من الناس جميلة وجوههم طيبة أرواحهم، وأقبلوا يصلّون بالليل أجمع، فلما طلع الفجر سجدت ثم رفعت رأسي فلم أر منهم أحداً.

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: إنه مرّ بالحسين بن علي خمسون ألف ملك وهو يُقتل، فخرجوا إلى السماء، فأوحى الله إليهم: مررتم بآبن حبيبي وهو يُقتل، فلم تنصروه، فاهبطوا إلى الأرض، فاسكنوا عند قبره شعثاً غبراً إلى أن تقوم الساعة^(١).

❖ ورَوَى المجلسي بإسناده إلى الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه

→
وروي في كامل الزيارات أيضاً ص (٨٥ و ١٩١)، وبحار الأنوار (٢٢٣/٤٥) و (٥٦/٩٨)، ومستدرک الوسائل (٢٤٣/١٠): بسنده إلى الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله وكل بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شعث غبر، ويكونه من طلوع الفجر إلى زوال الشمس، وإذا زالت الشمس هبط أربعة آلاف ملك وصعد أربعة آلاف ملك، فلم يزل يكونه حتى يطلع الفجر.

وروي في بحار الأنوار (٢٢٦/٤٥)، ومستدرک الوسائل (٢٤٥/١٠) مسنداً إلى أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: هبط أربعة آلاف ملك يريدون القتال مع الحسين عليه السلام فلم يؤذن لهم في القتال، فرجعوا في الاستمرار، فهبطوا وقد قتل الحسين (رحمة الله عليه، ولعن قاتله ومن أعان عليه ومن شرك في دمه) فهم عند قبره شعث غبر، ويكونه إلى يوم القيامة، رئيسهم ملك يقال له: منصور، فلا يزوره زائر إلا استقبلوه، ولا يودّعه مُودّع إلا شيعوه، ولا يمرض إلا عادوه، ولا يموت إلا صلّوا على جنازته واستغفروا له بعد موته، فكل هؤلاء في الأرض ينتظرون قيام القائم عليه السلام.

(١) راجع كامل الزيارات ص (١١٥)، وبحار الأنوار (٢٢٦/٤٥).

عليه السلام عن جده عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: ليلة أسري بي إلى السماء، فبلغت السماء الخامسة، نظرت إلى صورة علي بن أبي طالب، فقلت: حبيبي جبرئيل ما هذه الصورة؟ فقال جبرئيل: يا محمد، اشتهدت الملائكة أن ينظروا إلى صورة علي فقالوا: ربنا، إن بني آدم في دنياهم يتمتعون غدوة وعشية بالنظر إلى علي بن أبي طالب حبيب حبيبك محمد ﷺ وخليفته ووصيه وأمينه، فمتعنا بصورته قدر ما تمتع أهل الدنيا به، فصور لهم صورته من نور قدسه عز وجل، فعلي عليه السلام بين أيديهم ليلاً ونهاراً يزورونه وينظرون إليه غدوة وعشية.

قال: فأخبرني الأعمش عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: فلما ضربه اللعين ابن ملجم على رأسه صارت تلك الضربة في صورته التي في السماء، فالملائكة ينظرون إليه غدوة وعشية يلعنون قاتله ابن ملجم، فلما قتل الحسين بن علي عليه السلام هبطت الملائكة وحملته حتى أوقفته مع صورة علي في السماء الخامسة، فكلما هبطت الملائكة من السماوات من علأ وصعدت ملائكة السماء الدنيا فمن فوقها إلى السماء الخامسة لزيارة صورة علي عليه السلام والنظر إليه وإلى الحسين بن علي متشحطاً بدمه لعنوا يزيد وابن زياد وقاتل الحسين بن علي عليه السلام إلى يوم القيامة.

قال الأعمش: قال لي الصادق عليه السلام: هذا من مكنون العلم ومخزونة، لا تخرجه إلا إلى أهله^(١).

(١) راجع بحار الأنوار (٣٠٤/١٨) و (٢٢٩/٤٥) نقله المجلسي رحمه الله عن كتاب المعراج للشيخ الصالح ابن محمد الحسن رحمه الله عنه.

❖ ورُوِيَ في كامل الزيارات بسنده إلى هشام بن سعد أنه قال: أخبرني المشيخة أن الملك الذي جاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره بقتل الحسين بن علي عليه السلام كان ملك البحار، وذلك أن ملكاً من ملائكة الفردوس نزل على البحر ونشر أجنحته عليها، ثم صاح صيحة وقال: يا أهل البحار، البسوا أثواب الحزن، فإن فرخ الرسول مذبوح، ثم حمل من تربته في أجنحته إلى السماوات، فلم يلق ملكاً فيها إلا شمها وصار عنده لها أثر، ولعن قتلته وأشياهم وأتباعهم^(١).

❖ وفيه بسنده إلى عبد الملك بن مقرن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا زرتم أبا عبد الله عليه السلام فالزموا الصمت إلا من خير، وإن ملائكة الليل والنهار من الحفظة تحضر الملائكة الذين بالحائر فتصافحهم فلا يجيئونها من شدة البكاء فينتظرونهم حتى تزول الشمس وحتى ينور الفجر، ثم يكلمونهم ويسألونهم عن أشياء من أمر السماء، فأما ما بين هذين الوقتين فإنهم لا ينطقون ولا يفترقون عن البكاء والدعاء، ولا يشغلونهم في هذين الوقتين عن أصحابهم، فإنهم شغلهم بكم إذا نطقتم.

قلت: جعلت فداك، وما الذي يسألونهم عنه، وأيهم يسأل صاحبه والحفظة أو أهل الحائر؟ قال: أهل الحائر يسألون الحفظة، لأن أهل الحائر من الملائكة لا يبرحون والحفظة تنزل وتصعد.

قلت: فما ترى يسألونهم عنه؟ قال: أنهم يمرون إذا عرجوا بإسماعيل صاحب الهواء، فربما وافقوا النبي ﷺ عنده وفاطمة والحسن والحسين والأئمة

(١) راجع كامل الزيارات ص (٦٧)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢١)، ومستدرک الوسائل (٣/٢٢٧).

من مضى منهم، فيسألونهم عن أشياء، وعمّن حضر منكم الحائر، ويقولون: بشروهم بدعائكم، فتقول الحفظة كيف نبشرهم وهم لا يسمعون كلامنا، فيقولون لهم: باركوا عليهم وادعوا لهم عنّا، فهي البشارة منّا، وإذا انصرفوا فحقّوهم بأجنتكم حتى يحسوا مكانكم، وإنا نستودعهم الذي لا تضيع ودائعه، ولو يعلموا ما في زيارته من الخير ويعلم ذلك الناس لاقتتلوا على زيارته بالسيف، ولباعوا أموالهم في إتيانه.

وإن فاطمة عليها السلام إذا نظرت إليهم ومعها ألف نبي وألف صديق وألف شهيد ومن الكروبيين ألف يسعدونها على البكاء، وإنها لتشهق شهقة فلا تبقى في السماوات ملك إلا بكى رحمة لصوتها، وما تسكن حتى يأتيها النبي ﷺ فيقول: يا بنية، قد أبكيت أهل السماوات وشغلتهم عن التقديس والتسييح، فكفى حتى يقدسوا فإن الله بالغ أمره، وإنها لتنظر إلى من حضر منكم فتسأل الله لهم من كل خير، ولا تزهدوا في إتيانه، فإن الخير في إتيانه أكثر من أن يحصى^(١).

❖ وفي أمالي المفيد النيسابوري: أن زرة النائحة رأت فاطمة عليها السلام فيما يرى النائم، أنها وقفت على قبر الحسين عليه السلام تبكي، وأمرتها أن تنشد:

أيها العينان فيضاً	واسـتهـلا لا تغيظـا
وابكيا بالطفّ ميتاً	تـركـ الصـدرَ رضـيـضـا
لم أمرضـه قـتـيـلاً	لا ولا كان مريضاً ^(٢)

(١) راجع كامل الزيارات ص (٣٠٤)، وبحار الأنوار (٢٢٩/٤٥).

(٢) راجع بحار الأنوار (٢٢٨/٤٥)، ومناقب ابن شهر آشوب (٦٣/٤).

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته في طريق المدينة ونحن نريد مكة فقلت: يا ابن رسول الله، مالي أراك كئيباً حزيناً منكسراً؟ فقال: لو تسمع ما أسمع لشغلك عن مساءلتي!!
فقلت: وما الذي تسمع؟

قال: ابتهاج الملائكة إلى الله جل وعز على قتلة أمير المؤمنين وقتلة الحسين عليه السلام، ونوح الجن وبكاء الملائكة الذين حولهم، وشدة جزعهم، فمن يتهنأ مع هذا بطعام أو شراب أو نوم^(١).

❖ وفي علل الشرائع بسنده إلى الثمالي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: يا ابن رسول الله، أستم كلكم قائمين بالحق؟

قال: بلى. قلت: فلم سمي القائم قائماً؟

قال: لما قُتل جدي الحسين عليه السلام ضجّت الملائكة إلى الله عز وجل بالبكاء والنحيب، وقالوا: إلهنا وسيّدنا، أتغفل عمّن قتل صفوتك وابن صفوتك وخيرتك من خلقك، فأوحى الله عز وجل إليهم: قرّوا ملائكتي فوعزتي وجلالي لأنتقم منهم ولو بعد حين، ثم كشف الله عز وجل عن الأئمة من ولد الحسين عليه السلام للملائكة فسرت الملائكة بذلك، فإذا أحدهم قائمٌ يصلي، فقال الله عز وجل: بذلك القائم أنتقم منهم^(٢).

❖ وروي في الكافي بسنده إلى الأصم عن كرام قال: حلفت فيما بيني وبين

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٢ و ٢٩٧)، وبحار الأنوار (٢٢٦/٤٥) و (١٣٤/٩٤) و (١٤/٩٨).

(٢) راجع علل الشرائع (١٦٠/١)، وبحار الأنوار (٢٩٤/٣٧) و (٢٢١/٤٥) و (٢٨/٥١).

نفسى أن لا آكل طعاماً بنهار أبداً حتى يقوم قائم آل محمد، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: رجل من شيعتكم جعل الله عليه أن لا يأكل طعاماً بنهار أبداً حتى يقوم قائم آل محمد.

قال: فصم إذا يا كرام، ولا تصم العيدين ولا ثلاثة التشريق، ولا إذا كنت مسافراً ولا مريضاً، فإن الحسين عليه السلام لما قُتل عجت السماوات والأرض ومن عليهما والملائكة، فقالوا: يا ربنا ائذن لنا في هلاك الخلق حتى نجاهم من جديد الأرض بما استحلوا حرمتك وقتلوا صفوتك!!

فأوحى الله إليهم: يا ملائكتي ويا سماواتي ويا أرضي اسكنوا، ثم كشف حجاباً من الحجب، فإذا خلفه محمد ﷺ واثنان عشر وصياً له عليه السلام، ثم أخذ بيد فلان القائم من بينهم فقال: يا ملائكتي ويا سماواتي ويا أرضي، بهذا أنتصر لهذا، قالها ثلاث مرات^(١).

تأثير المصيبة على المكونات

النصوص الصريحة تؤكد متواتراً تأثير المكونات بمقتل الإمام الحسين عليه السلام، ومداليلها تعزز مفهوم الحزن في كل أصقاع عالم الإمكان، وقد عززت مصادر الشيعة والسنة بكاء السماء بالحمرة على الإمام الحسين عليه السلام.

❖ في مستدرك الوسائل بالإسناد إلى زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا زراره، إن السماء بكت على الحسين عليه السلام أربعين صباحاً بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف

(١) راجع الكافي (١/٥٣٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٢٨).

والحُمرة^(١).

❖ وقد نقل الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ قول

السَّندي: لما قُتل الحسين عليه السلام بكت عليه السماء، بكاؤها حمرتها.

وأسند عن ابن سيرين أنه قال: أنّ الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قُتل

الحسين بن علي عليه السلام. ثمَّ أسند كذلك عن سليمان بن القاس أنه قال: مطرنا دماً أيام قتل الحسين عليه السلام^(٢).

❖ وقال سبط ابن الجوزي: وحكمته أنّ غضباً يؤثّر حمرة الوجه، والحق

تنزّه عن الجسميّة، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين عليه السلام بحمرة الأفق
أظهاراً لعظيم الجناية^(٣).

وقد أبدع شاعر أهل البيت عليه السلام دعبل بن علي الخزاعي في تائيته العصماء

حين مرّ بذكر رزاياهم قائلاً:

رزايا أرتنا خُضرة الأفقِ حُمرةً وردّت أجاجاً طعمم كلّ فُرات

وقال الشيخ الكوّاز:

كيف العزاء لها وكلّ عشيةٍ دمكم بمحمرتها السماء تُريني

وإلى ذلك أشار شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعرّي حين أثار وجدانه قرص

(١) راجع مستدرك الوسائل (٣١٣/١٠)، وبحار الأنوار (٢٠٦/٤٥)، في المصدرين عن كامل الزيارات ص (٨١).

(٢) راجع تفسير الثعالبي ص (١٦٤)، وراجع كتاب ما روته العامة من مناقب أهل البيت للمولى حيدر الشيرواني ص (٢٤٧).

(٣) راجع الصواعق المحرقة ص (١٩٤).

وضعت إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي عليهما السلام.

قلت: أي شيء بكأؤها؟ قال: كانت إذا استقبلت بالثوب وقع على الثوب شبه أثر البراغيث من الدم^(١).

❖ وفي مناقب ابن شهر آشوب عن أبي نعيم في دلائل النبوة أنّ نصرة الأزدية قالت: لما قتل الحسين عليه السلام أمطرت السماء دماً، وحبابنا وجرارنا صارت مملوءة دماً^(٢).

❖ وقال قرظة بن عبيد الله: مطرت السماء يوماً نصف النهار على شملة بيضاء، فنظرت فإذا هو دم، وذهبت الإبل إلى الوادي لتشرب، فإذا هو دم، وإذا هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام^(٣).

❖ وفيه عن الأسود بن قيس: لما قتل الحسين عليه السلام ارتفعت حمرة من قبل المشرق وحمرة من قبل المغرب، فكادتا يلتقيان في كبد السماء ستة أشهر^(٤).

❖ وفي تاريخ النسوي: قال أبو قبيل: لما قتل الحسين بن علي عليهما السلام كسفت

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٠)، وبحار الأنوار (٢١١/٤٥). وروي في كامل الزيارات ص (٩١)، وبحار الأنوار (٢١٢/٤٥): عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: كان قاتل يحيى بن زكريا ولد زنا، وقاتل الحسين ولد زنا، ولم تبك السماء على أحد إلا عليهما. قال: قلت: وكيف تبكي؟ قال: تطلع الشمس في حمرة وتغيب في حمرة.

(٢) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٥٤/٤)، وبحار الأنوار (٢١٥/٤٥).

(٣) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٥٤/٤)، وبحار الأنوار (٢١٥/٤٥).

(٤) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٥٤/٤)، وبحار الأنوار (٢١٥/٤٥).

الشمس كسفة بدت الكواكب نصف النهار، حتى ظننا أنها هي^(١).

❖ وفي أمالي الشيخ الطوسي بسنده إلى الحسين بن أبي فاختة أنه قال لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام : جعلت فداك، إني أذكر الحسين بن علي عليه السلام فأبي شيء أقول إذا ذكرته ؟

فقال : قل صلى الله عليك يا أبا عبد الله، تكررّها ثلاثاً.

ثم أقبل علينا وقال : إن أبا عبد الله لما قتل بكت عليه السماوات السبع والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهن، ومن يتقلب في الجنة والنار، وما يرى وما لا يرى، إلا ثلاثة أشياء، فإنها لم تبك عليه.

فقلت : جعلت فداك، وما هذه الثلاثة الأشياء التي لم تبك عليه ؟

فقال : البصرة ودمشق وآل الحكم بن أبي العاص^(٢).

❖ وفي أمالي الصدوق بسنده إلى جيلة المكية أنها قالت : سمعت ميثم التمار رضي الله عنه يقول : والله لتقتل هذه الأمة ابن نبيها في المحرم لعشر يمضين منه، وليتخذن أعداء الله ذلك اليوم يوم بركة، وإن ذلك لكائن، قد سبق في علم الله تعالى ذكره، أعلم ذلك لعهد عهده إليّ مولاي أمير المؤمنين عليه السلام ولقد أخبرني أنه يبكي عليه كل شيء، حتى الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحر، والطير في السماء، ويبكي عليه الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض، ومؤمنوا

(١) راجع مناقب ابن شهر آشوب (٤/٥٤)، وبحار الأنوار (٤٥/٢١٦)، وأنها هي أي القيامة.

(٢) راجع أمالي الطوسي ص (٤٧٢)، وبحار الأنوار (٤٥/٢٠١) و (٥٧/٢٠٥)، وروي فيهما عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام : لما مضى أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بكى عليه جميع ما خلق الله إلا ثلاثة أشياء البصرة ودمشق وآل عثمان. وسيأتي مثل ذلك.

الإنس والجن، وجميع ملائكة السماوات والأرضين، ورضوان ومالك، وحملة العرش، وتمطر السماء دماً ورماداً.

ثم قال: وجبت لعنة الله على قتلة الحسين عليه السلام، كما وجبت على المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، وكما وجبت على اليهود والنصارى والمجوس.

فقلت له: يا ميثم، فكيف يتخذ الناس ذلك اليوم الذي قتل فيه الحسين يوم بركة؟ فبكى ميثم رضي الله عنه ثم قال: يزعمون لحديث يضعونه أنه اليوم الذي تاب الله فيه على آدم، وإنما تاب الله على آدم في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي قبل الله فيه توبة داود، وإنما قبل الله عز وجل توبته في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي أخرج الله فيه يونس من بطن الحوت، وإنما أخرج الله عز وجل يونس من بطن الحوت في ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي، وإنما استوت على الجودي في يوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويزعمون أنه اليوم الذي فلق الله عز وجل فيه البحر لبني إسرائيل، وإنما كان ذلك في ربيع الأول.

ثم قال ميثم: يا جبلة، أعلمني أن الحسين بن علي سيد الشهداء يوم القيامة، ولأصحابه على سائر الشهداء درجة، يا جبلة - إذا نظرت إلى الشمس حمراء كأنها دم عبيط فاعلمي أن سيد الشهداء الحسين قد قتل.

قالت جبلة: فخرجت ذات يوم، فرأيت الشمس على الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة، فصحت حينئذ وبكيت، وقُلت قد والله قتل سيدنا الحسين ابن علي عليه السلام ^(١).

(١) أمالي الصدوق ص (١٢٦)، والعلل (١/٢٢٧)، والبحار (٤٥/٢٠٢)، والدم العبيط: الطري.

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : بعث هشام بن عبد الملك إلى أبي عليه السلام فأشخصه إلى الشام ، فلمّا دخل عليه قال له : يا أبا جعفر ، أشخصناك لسألك عن مسألة لم يصلح أن يسألك عنها غيري ، ولا أعلم في الأرض خلقاً ينبغي أن يعرف أو عرف هذه المسألة إن كان إلاّ واحداً .

فقال أبي : ليسألني أمير المؤمنين عمّا أحب ، فإن علمت أجبت ذلك ، وإن لم أعلم قلت لا أدري ، وكان الصدق أولى بي .

فقال هشام : أخبرني عن الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب ، بما استدل به الغائب عن المصر الذي قتل فيه على قتله ؟ وما العلامة فيه للناس ؟ فإن علمت ذلك ، وأحببت ، فأخبرني هل كان تلك العلامة لغير علي عليه السلام في قتله ؟

فقال له أبي : يا أمير المؤمنين ، إنّه لما كان تلك الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يرفع حجر عن وجه الأرض إلاّ وجد تحته دم عبيط حتى طلع الفجر ، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها هارون أخو موسى عليه السلام ، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها يوشع بن نون ، وكذلك كانت الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم ، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها شمعون بن حمون الصفا ، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكذلك كانت الليلة التي قتل فيها الحسين بن علي عليه السلام .

قال : فتربّد وجه هشام حتى انتقع لونه وهمّ أن يبطش بأبي .

فقال له أبي : يا أمير المؤمنين ، الواجب على العباد الطاعة لإمامهم والصدق له بالنصيحة ، وإن الذي دعاني إلى أن أجبت أمير المؤمنين فيما سألني عنه معرفتي

له بما يجب له عليّ من الطاعة ، فليحسن أمير المؤمنين الظن.

فقال له هشام : انصرف إلى أهلك إذا شئت.

فخرج فقال له هشام عند خروجه : أعطني عهد الله وميثاقه أن لا توقع هذا

الحديث إلى أحد حتى أموت ، فأعطاه أبي من ذلك ما أرضاه^(١).

❖ وفيه بسنده إلى أبي نضرة عن رجل من أهل بيت المقدس أنه قال : والله

لقد عرفنا أهل بيت المقدس ونواحيها عشية قتل الحسين بن علي !!

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : ما رفعنا حجراً ولا مدرّاً وصخراً إلا ورأينا تحتها دمّاً يغلي ، واحمرت

الحيطان كالعلق ، ومطرنا ثلاثة أيام دمّاً عبيطاً ، وسمعنا منادياً ينادي في جوف

الليل يقول :

أترجو أمةً قتلت حسيناً شفاعته جدّه يوم الحساب

معاذ الله لا نلتم يقيناً شفاعته أحمد وأبي تراب

قتلتم خير من ركب المطايا وخير الشيب طراً والشباب

وانكسفت الشمس ثلاثاً ثم تجلّت عنها ، وانشبكت النجوم ، فلمّا كان من

الغد أرجفنا بقتله ، فلم يأت علينا كثير شيء حتى نعى إلينا الحسين عليه السلام^(٢).

(١) راجع كامل الزيارات ص (٧٥) ، وبحار الأنوار (٢٠٣/٤٥) ، وقال الجوهري : تربد وجه فلان

أي تغير من الغضب ، وانتقع لونه على بناء المجهول أي تغير من حزن أو سرور.

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٧٧) ، وبحار الأنوار (٢٠٥/٤٥) ، وفي المصدرين أخبار عدّة في هذا

الصّدّد ، ومنها ما روي عن الزهري أنّه قال : لما قُتل الحسين بن علي عليه السلام لم يبق بيت

المقدس حصاة إلا وجد تحتها دمّ عبيط.

❖ وفيه بإسناد يرفعه إلى أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: بكت الإنس والجن والطير والوحش على الحسين بن علي عليه السلام حتى ذرفت دموعها^(١).

❖ وفيه مسنداً إلى الحارث الأعور أنّ علياً عليه السلام قال: بأبي وأمي الحسين المقتول بظهر الكوفة، والله كأنني أنظر إلى الوحش مادة أعناقها على قبره من أنواع الوحش، يبكونه ويرثونه ليلاً حتى الصباح، فإذا كان كذلك فإياكم والجفاء^(٢).

❖ وفيه بسنده إلى زرارة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: يا زرارة، إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم، وأن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطعت وانتثرت، وإن البحار تفجرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين، وما اختضبت منّا امرأة ولا أدهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت، حتى أتانا رأس عبيد الله بن زياد (لعنه الله) وما زلنا في عبرة بعده.

وكان جدي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة، ولقد خرجت نفسه عليه السلام فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية (عليه الله) فشهقت جهنم شهقة، لو لا أن الله حبسها بخزانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلا ابتلعت، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد

(١) راجع كامل الزيارات ص (٧٩)، وبحار الأنوار (٢٠٥/٤٥)، وذرفت أي سالت.

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٢٩١)، وبحار الأنوار (٢٠٥/٤٥) و (٦/٩٨)، مستدرک الوسائل (٢٥٨/١٠).

عتت على الخزان غير مرة، حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وإنها لتبكيه وتندبه، وإنها لتتلظى على قاتله، ولو لا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض وأكفأت ما عليها، وما تكثر الزلازل إلا عند اقتراب الساعة^(١).

❖ وفيه بسنده إلى أبي بصير قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وأحدثه، فدخل عليه ابنه فقال له: مرحباً، وضمه وقبله، وقال: حقر الله من حقركم، وانتقم ممن وترككم، وخذل الله من خذلكم، ولعن الله من قتلكم، وكان الله لكم ولياً وحافظاً وناصرًا، فقد طال بكاء النساء وبكاء الأنبياء والصدّيقين والشهداء وملائكة السماء.

ثم بكى، وقال: يا أبا بصير، إذا نظرت إلى ولد الحسين أتاني ما لا أملكه بما أتى إلى أبيهم وإليهم، يا أبا بصير، إن فاطمة لتبكيه وتشهق فتزفر جهنم زفرة، لو لا أن الحزنة يسمعون بكاءها وقد استعدوا لذلك مخافة أن يخرج منها عنق أو يشرد دخانها فيحرق أهل الأرض فيكبحونها ما دامت باكية ويزجرونها ويوثقون من أبوابها مخافة على أهل الأرض، فلا تسكن حتى يسكن صوت فاطمة، وإن البحار تكاد أن تنفتق فيدخل بعضها على بعض، وما منها قطرة إلا بها ملك موكل، فإذا سمع الملك صوتها أطفأ نارها بأجنحته وحبس بعضها على بعض مخافة على الدنيا ومن فيها ومن على الأرض، فلا تزال الملائكة مشفقين، ويكون لبكائها ويدعون الله ويتضرعون إليه ويتضرع أهل العرش ومن حوله وترتفع أصوات من الملائكة بالتقديس لله مخافة على أهل الأرض، ولو أن صوتاً

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٠)، وبحار الأنوار (٢٠٦/٤٥)، ومستدرک الوسائل (٣١٣/١٠).

من أصواتهم يصل إلى الأرض لصعق أهل الأرض وتقلّعت الجبال وزلزلت الأرض بأهلها.

قلت : جعلت فداك ، إن هذا الأمر عظيم.

قال : غيره أعظم منه ، ما لم تسمعه . ثم قال : يا أبا بصير ، أما تحب أن تكون فيمن يسعد فاطمة ، فبكيت حين قالها ، فما قدرت على المنطق ، وما قدرت على كلامي من البكاء ، ثم قام إلى المصلى يدعو وخرجت من عنده على تلك الحال ، فما انتفعت بطعام وما جاءني النوم ، وأصبحت صائماً وجالاً حتى أتته ، فلما رأته قد سكن سكنت ، وحمدت الله حيث لم تنزل بي عقوبة^(١) .

❖ وفي أمالي الصدوق بسنده إلى عبد الله بن لطيف التفليسي قال : قال الصادق عليه السلام : لما ضرب الحسين بن علي عليه السلام بالسيف ثم ابتدر ليقطع رأسه نادى مناد من قبل رب العزة تبارك وتعالى من بطنان العرش فقال : ألا أيتها الأمة المتحيرة الظالمة بعد نبيها ، لا وفقكم الله لأضحى ولا فطر.

قال ثم أبو عبد الله عليه السلام : لا جرم والله ، ما وفقوا ولا يوفقون أبداً حتى يقوم ثائر الحسين عليه السلام^(٢) .

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨٢) ، وبحار الأنوار (٢٠٨/٤٥) .

(٢) راجع أمالي الصدوق ص (١٦٨) ، وبحار الأنوار (٢١٧/٤٥) و (١٣٤/٨٨) ، مستدرک الوسائل (٦٥٦/٦) ، روضة الواعظين (١٩٣/١) ، وفي علل الشرائع عن أبي عبد الله عليه السلام مثله ، وفيه أيضاً (٣٨٩/٢) بسنده إلى محمد بن إسماعيل الرازي عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال : قلت : جعلت فداك ، ما تقول في العامة ، فإنه قد روي أنهم لا يوفقون لصوم ؟ فقال لي : أما إنهم قد أجيب دعوه الملك فيهم .

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى داود بن فرقد قال : كنت جالساً في بيت أبي عبد الله عليه السلام فنظرت إلى الحمام الراعي يقرقر طويلاً ، فنظر إليّ أبو عبد الله عليه السلام طويلاً فقال : يا داود ، تدري ما يقول هذا الطير ؟ قلت : لا والله جعلت فداك .

قال : تدعو على قتلة الحسين عليه السلام فاتخذوه في منازلكم ^(١) .

❖ وفيه بسنده إلى الحسين بن أبي غندر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سمعته يقول في البومة : هل أحدٌ منكم رآها بالنهار ؟ قيل له : لا تكاد تظهر بالنهار ولا تظهر إلا ليلاً ، قال : أما أنها لم تنزل تأوي العمران أبداً ، فلما أن قُتل الحسين عليه السلام آلت على نفسها أن لا تأوي العمران أبداً ولا تأوي إلا الخراب ، فلا تزال نهارها صائمة حزينة حتى يجتئها الليل ، فإذا جتئها الليل فلا تزال ترنّ على الحسين عليه السلام حتى تصبح ^(٢) .

قلت : وكيف ذلك جعلت فداك ؟ قال : إن الناس لما قتلوا الحسين بن علي عليه السلام أمر الله عز وجل ملكاً ينادي : آيتها الأمة الظالمة القاتلة عترة نبيها ، لا وفقكم الله لصوم ولا فطر . وفي حديث آخر لفطر ولا أضحى ..

وقال العلامة المجلسي رحمته : عدم توفيقهم للفطر والأضحى إما لاشتباه الهلال في كثير من الأزمان في هذين الشهرين كما فهمه الأكثر ، أو لأنهم لعدم ظهور أئمة الحق وعدم استيلائهم لا يوفقون للصلاطين ، إما كاملة أو مطلقاً ، بناء على اشتراط الإمام ، أو يخص الحكم بالعامه كما هو الظاهر ، والأخير عندي أظهر والله يعلم .

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٨) ، وبحار الأنوار (٢١٣/٤٥) و (١٥/٦٢) ، ووسائل الشيعة (٥١٨/١١) ، ومستدرک الوسائل (٢٨٤/٨) .

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٨) ، وبحار الأنوار (٢١٣/٤٥) و (٣٢٩/٦١) .

❖ وفيه بسنده إلى الحسين بن علي بن صاعد البربري قيماً لقبر الرضا عليه السلام قال: حدثني أبي، قال: دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي: ما يقول الناس؟ قلت: جعلت فداك، جئنا نسألك، فقال لي: ترى هذه البومة، كانت على عهد جدي رسول الله ﷺ تأوي المنازل والقصور والدور، وكانت إذا أكل الناس الطعام تطير فتقع أمامهم، فيرمى إليها بالطعام، وتسقى ثم ترجع إلى مكانها، ولما قُتل الحسين بن علي خرجت من العمران إلى الخراب والجبال والبراري، وقالت: بئس الأمة أنتم، قتلتم ابن نبيكم، ولا آمنكم على نفسي^(١).

❖ وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن البومة لتصوم النهار، فإذا أفطرت تدلّته على الحسين عليه السلام حتى تصبح^(٢).

الجن وأصداء المقتل

جاء في بعض كتب المقاتل ذكرٌ كثير لنياحة الجن، وأوردت كتب التاريخ والمقاتل بعض أشعارهم في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، والذي يهمن أن الكثير من نعيمهم قد روي في كتبنا المعتبرة، ولهذا ينبغي رصد بعض تلك الروايات والإشارة إليها ضمن أصداء المقتل الغيبية التي لحقت الشهادة.

وإن كان يجيش في نفسي أنه يمكن العثور على أكثر أشعارهم تلك منسوبة لقائل من بني الإنس، ولكته ليس هذا محلّ تحقيق ذلك، وهذا لا يقدر بصحة هذه الروايات، إذ يمكن أن يكون الجن قد حفظتها من الإنس.

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٩)، وبحار الأنوار (٢١٤/٤٥) و (٣٢٩/٦١).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٩)، وبحار الأنوار (٢١٤/٤٥) و (٣٣٠/٦١).

وكيف كان، فالكتب المعتبرة التي ذكرت مقتل الإمام الحسين عليه السلام تكاد تطفح بنوح الجن عليه في أبواب ما بعد الشهادة، وفي شعرهم أدبٌ كثير ورقة تستحق الوقوف، وتمتاز غالباً بقصر الأوزان والبحور، وسماتها خاصة فيها.

❖ روى العلامة المجلسي رحمته الله عن بعض كتب المناقب المعتبرة بسند يتصل بهند بنت الجون أنها قالت: نزل رسول الله ﷺ بخيمة خالتها أم معبد ومعه أصحاب له، فكان من أمره في الشاة ما قد عرفه الناس، فقال في الخيمة هو وأصحابه حتى أبرد، وكان يوم قاتظ شديد حره، فلما قام من رقدته دعا بماء فغسل يديه، فأنقاهما ثم مضمض فاه ومجه على عوسجة كانت إلى جنب خيمتها ثلاث مرات، واستنشق ثلاثاً وغسل وجهه وذراعيه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: لهذه العوسجة شأن، ثم فعل من كان معه من أصحابه مثل ذلك.

ثم قام فصلى ركعتين، فعجبت وفتيات الحي من ذلك، وما كان عهدنا ولا رأينا مصلياً قبله، فلما كان من الغد أصبحنا وقد علت العوسجة حتى صارت كأعظم دوحة عادية وأبهى، وخضد الله شوكها، وساخت عروقها، وكثرت أفنانها، واخضر ساقها وورقها.

ثم أثمرت بعد ذلك، وأينعت بثمر كأعظم ما يكون من الكمأة في لون الورس المسحوق، ورائحة العنبر وطعم الشهد، والله ما أكل منها جائع إلا شبع ولا ظمآن إلا روي، ولا سقيم إلا برأ، ولا ذو حاجة وفاقة إلا استغنى، ولا أكل من ورقها بغير ولا ناقة ولا شاة إلا سمنت ودرّ لبنها، ورأينا النماء والبركة في أموالنا منذ يوم نزل، وأخصبت بلادنا وأمرعت، فكنا نسمي تلك الشجرة المباركة، وكان ينتابنا من حولنا من أهل البوادي يستظلون بها ويتزودون من ورقها في

الأسفار، ويحملون معهم في الأرض القفار، فيقوم لهم مقام الطعام والشراب. فلم تزل كذلك، وعلى ذلك أصبحنا ذات يوم وقد تساقط ثمارها واصفر ورقها، فأحزننا ذلك وفرقنا له، فما كان إلا قليلاً حتى جاء نعي رسول الله ﷺ، فإذا هو قد قبض ذلك اليوم، فكانت بعد ذلك تثمر ثمراً دون ذلك في العظم والطعم والرائحة، فأقامت على ذلك ثلاثين سنة.

فلما كانت ذات يوم أصبحنا وإذا بها قد تشوكت من أولها إلى آخرها، فذهبت نضارة عيدانها وتساقط جميع ثمرها، فما كان إلا يسيراً حتى وافى مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فما أثمرت بعد ذلك لا قليلاً ولا كثيراً، وانقطع ثمرها ولم نزل ومن حولنا نأخذ من ورقها ونداوي مرضانا بها ونستشفى به من أسقامنا، فأقامت على ذلك برهة طويلة، ثم أصبحنا ذات يوم فإذا بها قد انبعثت من ساقها دماً عيبطاً جارياً، وورقها ذابلة تقطر دماً كماء اللحم!! فقلنا أن قد حدث عظمة، فبتنا ليلتنا فزعين مهمومين نتوقع الداهية، فلما أظلم الليل علينا سمعنا بكاءً وعويلاً من تحتها، وجلبة شديدة ورجّة، وسمعنا صوت باكية تقول:

أيا ابن النبيّ ويا ابن الوصي ويا من بقيّة ساداتنا الأكرمينَا

ثم كثرت الرنات والأصوات، فلم نفهم كثيراً مما كانوا يقولون، فأتانا بعد ذلك قتل الحسين عليه السلام، ويبست الشجرة وجفّت، فكسرتها الرياح والأمطار بعد ذلك فذهبت واندرس أثرها^(١).

(١) راجع بحار الأنوار (٢٣٣/٤٥)، وفيه: قال عبد الله بن محمد الأنصاري: فلقيت دعبل بن علي الخزاعي بمدينة الرسول ﷺ فحدثته بهذا الحديث فلم ينكره.

❖ وقال عبد الله بن محمد الأنصاري: حدثني أبي عن جدي، عن أمه سعيدة بنت مالك الخزاعية: أنها أدركت تلك الشجرة، فأكلت من ثمرها على عهد علي بن أبي طالب عليه السلام وأنها سمعت تلك الليلة نوح الجن، فحفظت من جنية منهن:

يا ابن الشهيدِ ويا شهيداً عمُّهُ
عجباً لمصقولٍ أصابك حدُّهُ
قال دعبل فقلت في قصيدتي:

زر خيرَ قبرٍ بالعراقِ يُزارُ
لم لا أزوركُ يا حسينُ لك الفدا
و لك المودَّةُ في قلوبِ ذوي النُّهى
يا ابن الشهيدِ ويا شهيداً عمُّهُ
واعصِ الحمارَ فمن نهاك حمارُ
قومي و من عطفت عليه نزارُ
وعلى عدوكَ مَقْتَةٌ ودَمَارُ
خيرُ العمومةِ جعفرُ الطيارُ^(١).

❖ وقال ابن نما رحمته الله: ناحت عليه الجن، وكان نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله منهم المسور بن مخزومة ورجال يستمعون النوح ويبكون^(٢).

❖ وذكر صاحب الذخيرة عن عكرمة أنه سمع ليلة قتله بالمدينة مناد يسمعونه ولا يرون شخصه:

أيها القاتلون جهلاً حسيناً
كلُّ أهلِ السماءِ يدعوا عليكم
أبشروا بالعذابِ والتَّكْيِيلِ
من نبيٍّ وملائكٍ وقبيلِ

(١) راجع بحار الأنوار (٢٣٣/٤٥).

(٢) راجع مثير الأحران ص (١٠٧)، وبحار الأنوار (٢٣٥/٤٥).

قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وصاحب الإنجيل^(١)
 ❖ ورؤي أن هاتفا سُمع بالبصرة ينشد ليلاً :

إن الرّماح الواردات صدورها
 ويُهلّون بأن قُتلت وإنما
 فكأنما قتلوا أباك محمداً
 ❖ ويروى أنّ الجن قالت :

نساءُ الجنّ يبكين
 ويُسعدن بنوح
 ويندبن حسينا
 ويلطمن خدوداً
 ويلبسن ثياب السّود
 من الحزن شجيات
 للنساء الهاشميات
 عظمت تلك الرزيات
 كالمدنانير نقيات
 بعد القصبيات^(٣)

(١) راجع مشير الأحران ص (١٠٧)، وبحار الأنوار (٢٣٥/٤٥)، ورويت الأبيات في كامل الزيارات بسند إلى عمرو بن عكرمة، قال: أصبحنا ليلة قتل الحسين عليه السلام بالمدينة، فإذا مولى لنا يقول: سمعنا البارحة منادياً ينادي ويقول: أيها القاتلون جهلاً حسيناً. الأبيات.

(٢) راجع مشير الأحران ص (١٠٨)، وبحار الأنوار (٢٣٥/٤٥).

(٣) راجع مشير الأحران ص (١٠٩)، ومناقب ابن شهر آشوب (٦٢/٥)، والأبيات مروية باختلافات في كثير من المصادر، وقال المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار (٢٣٦/٤٥): ذكر ابن الجوزي في كتاب النور في فضائل الأيام والشهور نوح الجن عليه السلام فقالت:

لقد جعن نساء
 ويلطمن خدوداً
 ويلبسن الثياب
 الجن يبكين شجيات
 كالمدنانير نقيات
 السود بعد القصبيات

❖ وروي مناقب ابن شهر آشوب عن دعبل عن أبيه عن جدّه عن أمه سعدي بنت مالك الخزاعية، أنها سمعت نوح الجن على الحسين عليه السلام :

يا ابن الشهيد ويا شهيداً عمّه خير العمومة جعفر الطيّار
عجباً لمصقول أصابك حدّه في الوجه منك وقد علاك غبار^(١)

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى عبد الله بن حسان الكناني قال : بكت الجن على الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقالت :

ما ذا تقولون إذ قال النبيُّ لكم ما ذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بأهل بيتي وإخواني ومكرمتي من بين أسرى وقتلى ضرجوا بدم^(٢)

❖ وفيه بسنده إلى داود الرقي ، قال : حدثتني جدّتي إن الجن لما قتل الحسين عليه السلام بكت عليه بهذه الأبيات :

يا عينُ جودي بالعبر وابكي فقد حقّ الخبر
ابكي ابن فاطمة الذي ورد الفرات فما صدر
الجنُّ تبكي شجوها لما أتى منه الخبر
قُتل الحسين ورهطه تعساً لذلك من خبر
فلأبكيّتك حرقه عند العشاء وبالسحر
ولأبكيّتك ما جرى عرقٌ وما حمل الشجر^(٣)

(١) راجع بحار الأنوار (٢٣٦/٤٥)، ومناقب ابن شهر آشوب (٦٢/٤).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٥)، وبحار الأنوار (٢٣٦/٤٥)، وتروى الأبيات في أكثر من مصدر منسوبة لأم لقمان بنت عقيل عليها السلام مع أبيات أخرى.

(٣) راجع كامل الزيارات ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٢٣٨/٤٥).

❖ وفي أمالي الصدوق بسنده إلى أم سلمة زوجة النبي ﷺ قالت: ما سمعت نوح الجن منذ قبض النبي إلا الليلة، ولا أراني إلا وقد أصبت بابني، وقالت: وجاءت الجنية منهم تقول:

ألا يا عينُ فانهملي بجُهدي فمن يبكي على الشهداءِ بعدي
على رهطٍ تقوُدُهُمُ المنايا إلى مُتَجَبِّرٍ في ملكِ عبد^(١)

❖ وفي مجالس المفيد عن شيخ من بني تميم كان يسكن الرابية قال: سمعت أبي يقول: ما شعرنا بقتل الحسين عليه السلام حتى كان مساء ليلة عاشوراء، فإني لجالس بالرابية ومعني رجل من الحيّ فسمعنا هاتفاً يقول:

والله ما جئْتُكم حتى بَصُرْتُ به بالطفِّ منعفَرَ الخدَّينِ منحورا
وحولَه فتيةٌ تُدمي نَحورَهُم مثلَ المصابيحِ يُطفونَ الدُّجى نورا
وقد حَثَّتْ قلوبُني كي أصادفَهُم من قبلِ أن تتلاقى الحردُّ الحورا
فعاقني قدرٌ واللهُ بالغُهُ وكان أمراً قضاءً اللهُ مقدورا
كان الحسينُ سراجاً يُستضاءُ به اللهُ يعلمُ أني لم أقل زورا
صَلَّى الإلهُ على جسمٍ تضمَّنَه قبرَ الحسينِ حليفِ الخيرِ مقبورا
مجاورا لرسولِ اللهِ في غُرفِ وللوصيِّ وللطيِّارِ مسرورا
فقلنا له: من أنت يرحمك اللهُ؟

قال: أنا وآلي من جن نصيبين، أردنا مؤازرة الحسين عليه السلام ومواساته بأنفسنا

(١) راجع أمالي الصدوق ص (١٣٩)، وبحار الأنوار (٢٣٩/٤٥) و (٦٥/٦٠)، وروضة الواعظين (١٧٠/١)، والمناقب (٦٢/٤)، وروى المجلسي رحمه الله في بحاره عن المناقب القديم بسند مثله، وفيه: ألا يا عين فاحتفلي بجهد.

فانصرفنا من الحج فأصبناه قتيلاً^(١).

❖ وفي كامل الزيارات بسنده إلى أبي زياد القندي قال: كان الجصاصون يسمعون نوح الجن حين قتل الحسين بن علي عليه السلام في السّحر بالجبانة، وهم يقولون:

مَسَحَ الرَّسُولُ جَبِينَهُ فَلَهُ بَرِيقٌ فِي الْخُدُودِ
أَبْوَاهُ فِي عَلِيَا قَرِيشٍ جَدُّهُ خَيْرُ الْجُدُودِ^(٢)

❖ وفيه بسنده إلى علي بن الحزور قال: سمعت ليلي وهي تقول: سمعت

نوح الجن على الحسين بن علي عليه السلام وهي تقول:

يَا عَيْنُ جُودِي بِالِدَّمِوعِ فَأَتَمَّا يَبْكِي الْحَزِينُ بِمَحْرَقَةٍ وَتَوَجَّعَ

(١) راجع أمالي المفيد ص (٣٢٠)، وبحار الأنوار (٢٣٩/٤٥)، وأمالي الطوسي ص (٩١).

وتروى نفس الأبيات في كامل الزيارات ص (٩٤) بسند الميثمي قال: خمسة من أهل الكوفة أرادوا نصر الحسين بن علي عليه السلام فعرّسوا بقرية يقال لها شاهي، إذ أقبل عليهم رجلان، شيخ وشاب، وسلّما عليهم، فقال الشيخ: أنا رجل من الجن، وهذا ابن أخي، أراد نصر هذا الرجل المظلوم، فقال لهم الشيخ الجني: قد رأيت رأياً، فقال الفتية الإنسيون: وما هذا الرأي الذي رأيت؟ قال: رأيت أن أطيّر فأتيكم بخبر القوم فتذهبون على بصيرة، فقالوا له: نعم ما رأيت، قال: فغاب يومه وليلته، فلمّا كان من الغد إذا هم بصوت يسمعون ولا يرون الشخص وهو يقول: والله ما جئتكم حتى بصرت به. إلى آخر الأبيات.

فأجابه بعض الفتية من الإنسيين يقول:

أذهب فلا زال قبر أنت ساكنه إلى القيامة يسقى الغيث ممطورا
وقد سلكت سبيلا كنت سالكه وقد شربت بكأس كان معزورا
وفتية فرّغوا لله أنفسهم وفارقوا المال والأحباب والدّورا

(٢) راجع كامل الزيارات ص (٩٤)، وبحار الأنوار (١٤٧/٤٥)، وراجع كشف الغمّة (٥٧/٢)،

ومناقب ابن شهر آشوب (٣٩٠/٣).

يا عينُ أهلك الرِّقَادُ بطييةً من ذكرِ آلِ مُحَمَّدٍ وتوجع
باتت ثلاثاً بالصَّعيدِ جسومُهُم بينَ الوحوشِ وكلُّهم في مصرع^(١)

تعاقب الأصدقاء البشرية بعد المقتل

تلقى أهل الأرض خبر مقتل الإمام الحسين عليه السلام باهتمام بالغ، وتفاوتت ردود أفعالهم تجاهه بين الدهشة والعجب والحزن، وحدثنا التاريخ كذلك عمّن فرح وابتهج في يوم مقتله، وذلك حديث نظوي الكشح عنه، فهي ظواهر شاذة بعيدة عن الدين والإنسانية!!

وكانت الأصدقاء عند شيعة أهل البيت عليهم السلام أكثر رنة وإثارة، لما يحتلّه الإمام الشهيد عليه السلام من مكانة قدسية في النفوس، فانفجرت براكين أحزانهم عن أنهار من الدموع الساخنة، وتجددت عليهم آلامهم بفقد أصحاب الكساء جميعاً، وأحسوا بوخز الضمائر، وطوّقهم شعور بالغبن والتقصير في النصر، وجاشت في نفوسهم مشاعر مضطربة أسفرت عن معارك طاحنة.

فهم بين مصدوم بوقوع الحادث، فيزيد بالغ في سرعة إنهاء وقعة الطف، فلم تتسنّ للكثيرين الفرصة لنصرته، وفي التأريخ ذكرٌ لأخبار هؤلاء وتأسّفهم.. وبين منتظر لأمر الإمام زين العابدين عليه السلام الخلف والعصمة للناس بعد أبيه عليه السلام، فأمره هو المتبع، وفي التأريخ ذكرٌ لمراجعة هؤلاء له عليه السلام وإعراضه عنهم.. وبين من فقد توازنه بالتهوض لطلب ثأره دون حساب للعواقب!!

(١) راجع كامل الزيارات ص (٩٥)، وبحار الأنوار (٢٤١/٤٥).

لم تَمالك عُصبة مؤمنة نفسَها تجاه هذا الخبر الفظيع ، فحملت السلاح للشهادة دونَ ثأره ، وهؤلاء الذين عُرِفوا بالتوَّابين ، وسنستقصي سيرتهم بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام .

وأثر المصراع في كلِّ أصقاع الخلافة الإسلاميَّة وأحدث هزة عنيفة فيها ، وترامت أطراف التداعيات المترتبة على القضية بكلِّ أبعادها ، وكان مقتله المبرر لاجتياح العيصان والفوضى وترهل السُّلطة الأمويَّة !! ودخولها في نفق مظلم جرَّها إلى دواهي كبيرة كفيلة بتصدُّع الدَّولة وتفتيت قوتها !!

لقد كان لمصرع الإمام الحسين عليه السلام بهذه الصورة المأساوية نتائج خطيرة جداً ، إذ عاش كثيرٌ عقدة الذنب بمرارة ، ولم يحسب المسؤول الأول عن المجزرة حسابَ ردود الفعل المتتابة في أرجاء الدَّولة ، وأثبت من خلال هذه الجريمة قصر نظره ، فبدت الدَّولة عاجزة عن صدِّ تيارِ الثَّورة الذي عمَّ مختلف مناطقها .

أمَّا الحجاز فقد كانت تغلي على مرجل من النكير ، فالمدينة مسرح أول انتفاضة ضد السِّيادة الأمويَّة ، فهي معزولة عن الأمويِّين بحكم إستبعادها كعاصمة للخلافة وبنوعيَّة العمَّال المتدبين فيها ، وتلك عوامل تثير النقمة والعزلة ، ثمَّ جاءت حادثة كربلاء الدَّامية ففجَّرت سيلاً من المشاعر السَّاخطة المتأجَّجة بالغضب وأطلقت النفوس من عقالها .

وحاول يزيد يائساً تدارك الحال في المدينة بالتلويح بأمواله حيناً وبالتهديد أحياناً أخرى ، وعقد زعمائها في المسجد مؤتمراً واتخذوا فيه قراراً بخلع يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة الأنصاري ، وقرروا الهجوم على عناصر البيت الأموي المجتمعين في دار كبيرهم مروان بن الحكم ، فطردوهم من المدينة ، وأخرجوا بذلك

عاصمة الإسلام الأولى عن السيادة الأموية^(١).

وسرعان ما اتخذ سفاك الدماء يزيد بن معاوية قرار ضرب الثورة بالشدة، فأوكل إلى مسلم بن عقبة - أحد جبابرة العرب - وأد أعدائه في الحجاز، فوصل بجيشه المدينة وضرب حولها الحصار، وجابهه أهلها بشجاعة وخذقوا حول مدينتهم استعداداً للحرب، ولم تصمد المدينة طويلاً أمام جيشه، فسقطت في موقعة الحرة عام ٦٣ هـ فأباح حرمتها أياماً ثلاثة!^(٢).

واستتم بنو أمية إخضاع المدينة.. فانتقل العُصيان إلى مكة المكرمة، إذ شهدت تحركاً أكثر عنفاً وضراوة بإعلان عبد الله بن الزبير رفضه الاعتراف بخلافة يزيد، مستثمراً مشاعر الناس الصّاخبة بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام لصالح طموحه، وإن كان قد بدأ في تحركه قبل مقتله، وكان وجود الإمام عليه السلام من أهم معوقات بلوغ ابن الزبير غاياته، مع المكانة العظيمة التي احتلها الإمام الحسين عليه السلام في نفوس الجماهير، فإنه عليه السلام لم يدع لغيره أي مجال للمنافسة.

ولقد حلّ الإمام عليه السلام في مكة وكان من أثقل الناس على ابن الزبير، وطالما قد رمى إلى إقناع الإمام الحسين عليه السلام بالإسراع في مغادرة الحجاز، قائلاً: " لو كان لي في الكوفة مثل شيعتك ما عدلت عنها"^(٣).

(١) راجع الكامل لابن الأثير (٤/٤٤)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/٧).

(٢) راجع أنساب الأشراف للبلاذري (٤/٤٣)، وتاريخ يعقوبي (٢/٢٥٠)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٢٥٨).

(٣) راجع البداية والنهاية (٨/١٦٠)، وتجد الوقائع في تاريخ الطبري (٦/١٨٩)، وفيه: عرف - أي ابن الزبير - أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام الحسين بالبلد وأن حسيناً

واستثمر ابن الزبير مقتل الحسين عليه السلام أقصى استغلال، ووظف الغضب الذي فجرته كربلاء لصالح طموحه الشخصي، وتحركت قوى بني أمية لقمعه، وحوصرت مكة بقيادة الحصين بن نمير السكوني، وتحصن ابن الزبير في الكعبة وسد المنافذ، واستنكر المسلمون إقدام يزيد على غزو مكة، واشتد سخطهم حين أخذت مجانيق جيشه برمي قذائفها جهة الكعبة! ^(١).

وفي غمرة هذه الأحداث تأتي الأنباء ناعية يزيد، وتوقفت العمليات الحربية في مكة سنة ٦٤ هـ، فحاول الحصين إقناع ابن الزبير بالذهاب إلى الشام للبيعة ورفض ابن الزبير عرضه ذلك، وانتهت خلافة يزيد الذي لم تدم لأكثر من ثلاثة سنين، قتل في أولها الإمام الحسين عليه السلام، وأباح في ثانيها المدينة المنورة، وهتك في ثالثها مكة المكرمة!!

أما العراق فكان مسرح الرفض لسيادة بني أمية، وظهرت فيه تداعيات مقتل الإمام الحسين عليه السلام سريعاً بصورة واضحة، فقد اتخذت البصرة قرارها ببيعة وال لها وعمت الفوضى العارمة البلدة ففشل في إدارتها، فكتبوا لابن الزبير يبايعونه لينتدب لهم رجلاً يتولّى الأمر ويدفع عنهم خطر الخوارج، فبعث إليهم الحارث حتى جاء مصعب بن الزبير بعد ذلك فشهدت البصرة بعض الهدوء ^(٢).

أما الكوفة فقد خيم عليها شعور خاص بالتقصير والخذلان في أعقاب مصرع

→ أعظم في أعينهم وأنفسهم منه وأطوع في الناس منه.

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥٢/٤).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢٤/٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٣٨/٨)،

والأخبار الطوال للدينوري ص (٢٨٠).

الإمام الحسين عليه السلام ، وزاد شعورهم غلياناً مع وطأة السياسية الأموية القائمة على كسر شوكة ميولهم العلوية ، وواصل عمرو بن حريث طريقة عبيد الله بن زياد فيها ، فاتخذوا قرارهم بطرد ابن حريث وتولية عامر بن مسعود مكانه ، وكتب أهلها لابن الزبير بذلك فأقره في منصبه ، فخرج العراق بأهم مراكزه المدنية من هيمنة السيادة الأموية .

ولم تكن دمشق وهي عاصمة الخلافة الأموية بعيدة عن التدايعات المترتبة على المقتل ، فقد كان الوضع محرّجاً بعد تنازل معاوية الثاني عن عرش الخلافة في ظروف غامضة ، مما هيأ لاندلاع أزمة عنيفة في وجه النظام الأموي كادت أن تقضي عليه^(١) .

ومن جهة أخرى تفاقم التطاحن بين القبائل بشكل خطير ، ودارت بينها حروب طاحنة وحرك الأمويون أطرافهم فيها ، ورصد التاريخ تلك الأخبار ، واستطاع الفرع المرواني الأخذ بزمام الخلافة منذ ذلك اليوم وحتى سقوط الخلافة الأموية .

ظهور التوابين في الكوفة

الكوفة هي عاصمة الأحداث وبؤرة الغليان ، ومنها انطلق التوابون لأخذ الثأر عندما استُفز أهلها بعودة ابن زياد إليها دون أن يندى له جبين أو ترتعش كفاه لهول ما اقتترف أو يدخل في روعه الندم ، متجاهلاً بركان مشاعر السخط ، فوقف على منبر الكوفة محاولاً تسويغ ما جرى في كربلاء بالهجوم على سيد الشهداء

(١) راجع تاريخ الدولة العربية لفلهوزن ص (١٦٦) .

عليه السلام واصفاً إياه بالكذاب ابن الكذاب! (١).

لقد حجبته صلفه عن ميزان الأمور بموازينها، فاقترب هذا الخطأ في الكوفة!!
البلد الأكثر تحسُّساً بالنسبة لهذا الحدث!! وبعد ثقل كواهل أهلها بمرارة الندم،
فهم من دعوه عليه السلام في كتبهم وهم من قصّر في نصرته، وهم من فقد بشهادته
القائد والرمز والآمال والطموح.

وكان لابد من مخرج لمحنة أهل الكوفة، ولابد من تصحيح الموقف الذي
ألحق بهم العار والشنار، واتحد الناس في تلك المشاعر الملتهبة، فليس من الصعب
التفاهم تحت مظلة قائد يقودهم لتفجير غضبهم في وجه السلطة الأموية،
فتشكّلت جماعات يجمعها هذا الهدف، وكانوا يجتمعون وينقدون ذاتهم
ويحاسبون أنفسهم على التقصير الذي بدى منهم تجاه إمامهم عليه السلام، ثمّ راحوا
يتشاورون في كيفية تكفير الذنب!!

قال الطبري: " لما قتل الحسين بن علي تلاقى الشيعة بالتلاوم والتندّم،
ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصره وتركهم إجابته،
ومقتله إلى جانبهم، ولم ينصروه، ورأوا أنّه لا يغسل عارهم والإثم عنهم في
مقتله إلاّ بقتل من قتله أو القتل فيه" (٢).

وتصدّر خمسة من كبار زعماء الشيعة تلك الحركة، وعلى رأسهم سليمان
بن صُرْد الخزاعي رحمته الله، والمسيب بن نجبه الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيل

(١) راجع أنساب الأشراف للبلاذري (٤/٦٤).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧/٤٧).

الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعه بن شداد البجلي، وتجد هذه الأسماء مترددة في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، فهم من أصحابه ومؤيديه.

وبعيداً عن مراقبة السلطة قاد هؤلاء حملة من الإعلام المضاد للأمويين، وتشكلت نواة جيش يربو على مئة شخص حملوا التوبة شعاراً، إنطلاقاً من الآية: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

ونمت الحالة عن اجتماعات أفصحوا فيها عن شعورهم بهول المأساة وفداحتها وإحساسهم بالذنب، ودعوا إلى الإسراع باتخاذ مواقف الانتقام من المسؤول عن مقتل من الأمويين والمتواطئين، ووطنوا النفوس على فراق الأهل والمال في سبيل تحقيق ذلك الهدف، طلباً للتوبة والمغفرة، ولم يكن قادة الحركة يسعون وراء مطلب خاص أو مكسب شخصي، ولم يطلبوا السلطة، فبالغوا في نكران الذات في ردة فعل واضحة إزاء مقتل الحسين عليه السلام، وكان الخمسة المتولون قيادة الحركة من الشيوخ وكان أصغرهم قد ناهز الستين.

وعمل التوابون على استمالة زعماء الكوفة وجماهيرها، وكتبوا إلى شيعة البصرة والمدائن وسائر المناطق، وكتب أمير التوابين "سليمان" إلى عامل المدائن سعد بن حذيفة بن اليمان: "أما بعد، فإن الدنيا دار قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان منكراً، وأصبحت قد تشنأت إلى ذوي الألباب، وأزمع بالترحال منها عباد الله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤٨/٧).

الله لا يفنى.. إن أولياء الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فلم يُجب، وأراد الرجعة فحبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه، وعدوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً وغرّة بالله وجهلاً. فلما نظروا إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا، رأوا أن قد خطأوا بخذلان الزكي وإسلامه وترك مواساته والنصر له خطأ كبيراً، ليس منه مخرج ولا توبة دون قتل قاتليه، أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم" (١).

ويمثل الكتاب عينة واضحة تضم الخطوط العريضة للحركة، وكان وقعه مؤثراً على شيعة المدائن والكوفيين النازحين إليها، فاستجابوا فوراً للدعوة، وجاء ردّ عامل المدائن: "أما بعد، فقد قرأنا كتابك وفهمنا الذي دعوتنا إليه من الأمر الذي عليه رأى الملأ من إخوانك، فقد هُديت لحظك وُسُرت لرشدك، ونحن جادون مُجدّون مُعدّون مُسرجون مُلجُمون، ننظر الأمر ونستمع الداعي، فإذا جاء الصّريخ أقبلنا ولم نعرج إن شاء الله" (٢).

ولم يختلف حماس شيعة البصرة عن حماس شيعة المدائن، وجاء جواب المثني بن محربة العبدي من البصرة طافحاً بنفس الشاعر، واتسعت دعوة التوابين بين المطالبين بدم الإمام الحسين عليه السلام وكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرهم.

ولما بلغ أهل الكوفة خبر هلاك يزيد والتطوّرات السياسية في دمشق غمروا

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٠/٧).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥١/٧).

بجو من الإرتياح تشفياً بهلاك الطاغية وتداعي قوى الخلافة، وزادتهم الأحداث المتعاقبة عزمًا في تغيير صورة الحكم القائم، فأعلن البعض الرغبة بخروج الدعوة من السرية إلى العلنية ومباشرة الحرب ضد الأمويين، إلا أن سليمان أدرك بكياسته عجلة هؤلاء، وقال: " رويداً لا تعجلوا، إني قد نظرت فيما تذكرون، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشرف أهل الكوفة، وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون وعلموا أنهم المطلوبون كانوا أشد عليكم"^(١).

وكان التريث في صالح الحركة بعد هلاك يزيد وربكة النظام، إذ تضاعفت إستجابة المشاركين بالدعوة وساعد ذلك على إعلان الحركة، فتحوّلت الكوفة إلى مركز للنشاط السياسي بمختلف المظاهر وعمت الحالة مجتمع الكوفة.

ثم أعلنت الثورة وهاجم الكوفيون دار الإمارة وطرّدوا ممثل ابن زياد، وسلّمت السلطة فيها إلى عامر بن مسعود فدان بالولاء لابن الزبير، ومع أنّ الكوفيين لم يقنعهم ذلك إلا أنّ الضرورة اقتضت الإغضاء عن ذلك^(٢).

ولمّا رأى الأمويون رياح الثورة الحجازية تهب بشكل عاصف على العراق أسرعوا في التودّد لابن الزبير لضمان مصالحهم، فأظهر التوّابون استنكافهم من ذلك، فأهدافهم لا تلتقي مع ابن الزبير، لكنّ بسط نفوذه على العراق آخر إعلانهم ذلك، فقد ارتبطت الكوفة بالحجاز وتقبّل الشيعة الأمر بفتور وتحفّظ، وسرعان ما صارت الكوفة إحدى ولايات الخلافة الزبيرية.

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٢/٧).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/٨).

الظهور الأول للمختار الثقفي

وتوالت أحداث مهمة في الكوفة أدت إلى خلخلة الجبهة الشيعية، ففي حين يبسط ابن الزبير نفوذه فيها يظهر فيها - بصورة مفاجأة - المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١).

ولست أنوي تقييم هذه الشخصية المثيرة للجدل، فالتحقيق يقتضي الإطناب والبسط، إلا أن الذي يمكن قوله أن المختار أعد نفسه ليكون ركناً في الثورة الحسينية، وكانت حركته في الكوفة بداعي تهياة المناخ فيها للثورة، إلا أن الوالي الأموي أودعه السجن في ثلثة من أقطاب الشيعة، فسُجن حتى توسط له صهره عبد الله بن عمر لدى الخليفة يزيد^(٢).

والتحم المختار في قوة ابن الزبير في الحجاز والحقد يملأ قلبه على الأمويين، وسرعان ما تبدد هذا الإنسجام، إذ أن المختار مستقلاً في المطامح ولن يلتقي مع ابن الزبير إلا في القليل، فقفلاً عائداً إلى الكوفة ليتصدّر واجهتها، فجاءهم رافعاً شعار الثأر للإمام الحسين عليه السلام الذي هو شعارهم الذي جندوا من أجله الكوفة!! وساعده في بسط نفوذه دعم محمد بن الحنفية عليه السلام، فقامت دعوته منطلقة من الحجاز إلى الكوفة باسم ابن الحنفية^(٣).

وبقيت شخصيته تحت ظل شخصية قائدها سليمان بن صرد، وشك الكثير في

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٥٣/٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٤٨/٨).

(٢) راجع تاريخ العرب السياسي (١١٤ - ١١٥)، والحوارج والشيعة لفلهوزن ص (١٩٨)، وتاريخ يعقوبي (٢٥٨/٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٤٩/٨).

(٣) راجع تاريخ يعقوبي (٢٥٨/٢)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٤/٧).

صحّة علاقة دعوته بابن الحنفية ، ولم يمنعه ذلك من عرض برنامجه الدعوي مشيراً إلى بصيرة حركته ، مُلمّحاً إلى علاقته ببيت الإمامة ، فقال : " إن سليمان ليس له بصّر بالحرب ، ولا تجربة بالأمر ، وإنما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال قد مثّل لي ، وأمرٍ قد بُيّن لي ، فيه عزّ وليّكم ، وقتل عدوكم وشفاء صدوركم ، فاسمعوا قولِي وأطيعوا أمري" (١).

ولم تؤثّر حملاته على التوّابين وانقلب نشاط المختار عليه ، وشعر جماعة ابن الزبير بخطره على أهدافهم ، فكتب البعض إلى عامل المدينة يحذّرونه من المختار وأهدافه في الكوفة ، ونصحوه بتخليده في السّجن حتى يستقيم أمر الناس (٢).

وأقحم المختار إلى السّجن مرّة أخرى ليراقب مسرح الأحداث من وراء قضبانه ، وصرّح بمباركته تحرك سليمان ، وحثّ على إعلان ثورة الكوفة ، وكان يردّد على مسامع زائريه تأكيده على الثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام قائلاً : " أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلنّ كلّ جبار ، بكلّ لدن خطر ، ومُهتد بتار ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار ، ولا بعزل أشرار ، حتى إذا أقمت عمود الدين ، وزايلت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر أولاد النبيين ، لم يكبر عليّ زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى" (٣).

(١) راجع البداية والنهاية لابن الأثير (٧٢/٤).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٥/٧) ، والبداية والنهاية لابن الأثير (٧٣/٤).

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٦/٧) ، والبداية والنهاية لابن الأثير (٧٣/٤).

إنطلاقة التوابين في الكوفة

صعد التوابون جهودهم وجابوا الكوفة وأسواقها لعرض السلاح وتحريك الأجواء واستشارة الجماهير ودعوة المتطوعين، حتى حلت سنة ٦٥ هـ فخرجت دعوتهم إلى حيز التنفيذ الحاسم، وإن كان يعوزهم العدد، فرُدَّت الشعارات: "من أراد الجنة فليلتحق بسليمان في النخيلة.. من أراد التوبة فليلتحق بسليمان"، فارتفع العدد مع تصعيد الحملات الدعائية إلى أربعة آلاف مقاتل^(١).

وهو عددٌ كبير في مجتمع متخلخل أثرت عليه الأحداث وشئت كلمته، وأعلن سليمان أن الهدف الأول هو رأس عبيد الله بن زياد المسؤول المباشر بعد هلاك يزيد، قائلاً: "لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي، هذا الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا إلى عدوكم مع الله، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية، فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا، وأن تستشهدوا وإنما قاتلتم المحليين، وما عند الله خير للأبرار، لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحليين، ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه أو رجلاً لم يكن يريد قتله، فاستخروا الله وسيروا"^(٢).

(١) راجع البداية والنهاية لابن الأثير (٧٤/٤)، وقال ابن كثير (٢٥١/٨): أنّ عدد المتطوعين بلغ نحو عشرين ألفاً.

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٦٨/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٤/٤).

وارتأى التوّابون أن تكون الشّام هدف حملتهم التي يعدّون لها، وتأكّد لهم ضرورة ضرب رأس الأفعى دون محاسبة الأشخاص، فغادروا الكوفة في الخامس من ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ إلى النخيلة لتلتقي وفود المتطوّعين في موعد مُحدّد، وأقام سليمان أيّاماً ثلاثة فيها، وقد انخفض العدد الذي التزم الخروج كثيراً، ولم يتجاوزوا الأربعة آلاف مقاتل أو أقل من ذلك !!

ولم يؤثّر ذلك على العزائم الثّابتة، ولم يفكّروا بسوى الهدف الذي خرجوا من أجله، وخطب فيهم سليمان عليه السلام في هذا الظّرف العصيب، وفجّر فيهم الحماسة والشّجاعة، وغادر سليمان النّخيلة بجيشه إلى كربلاء، حاملين إلى قبر سيّد الشهداء عليه السلام آلامهم بكلّ تفجّع، وكان لقاء المستغفرين في حضرة صاحب الشّفاة، فنحروا ذاتهم وأناهم وطموحاتهم الشخصية عند منحصر الإمام الحسين عليه السلام ولم يرغبوا في العيش بعده، وجدّدوا ميثاقهم الذي جمعهم عنده، بعد أن استنشقوا عبير الشهادة الحسيني الطري في ساحة مقتله ومصرعه !!

وكلّهم يقول: " اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبيّنا، وقد أسأنا وأخطأنا، فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم، اللهم ارحم الحسين، الشهيد ابن الشهيد، وارحم إخواننا الذين حصنوا أنفسهم معه بالشهادة، اللهم إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين "

وقد حاول أمير الكوفة الزبيرى جاهداً ثني التوابين عن نيّتهم مطالباً بتأخير موعد الحركة، ولكن المنطق الذي يحرك التوابين لا يلتقي مع منطق الأمير، ولهذا فإنّ سليمان عليه السلام أتمّ قراءة كتابه بتنهيدة ثمّ تمثّل:

أرى لك شكلاً غير شكلي فأقصري عن اللوم إذ بدلت واختلف الشكل^(١)
 وكان قد غادر بأصحابه كربلاء ووصل هيت، فأجابه برسالة مختصرة
 يخبره بعزمه على المسير للثأر، وأدرك أمير الكوفة أنه أرسل إليه كتابه عبثاً،
 فالتفت لمن حضره يقول وكأنه يسر إلى نفسه: "استمات القوم ورب الكعبة،
 وأول خبر يأتيكم عنهم بأنهم قتلوا بأجمعهم، والله لا قتلوا حتى يكثرت القتل
 بينهم وبين عدوهم"^(٢).

أما التوابع فقد باتوا يوماً وليلة عند قبر الإمام الحسين عليه السلام ثم غادروه إلى
 الأنبار ومنها إلى القيارة وهيت، وتجنبوا السير عبر الصحراء، واتخذوا طريق
 الجزيرة، وتوالت أنباء جيش كبير للأمويين يزحف من دمشق، ولم تتأثر خططهم
 العامة بهذا النبأ، وجرت إتصالات بين سليمان وبين زفر الكلابي أمير قرقيسيا
 المعارض للأمويين، وكان قد أمر بإغلاق المدينة تحسباً للظروف، فقابله المسيب
 نائب سليمان وشرح له أبعاد الحركة فأبدى تعاطفاً واستعداداً لمساعدتهم^(٣).

ولم يزودهم بأكثر من الغذاء رغم تعاطفه معهم وعداوته للأمويين، وربما
 لأنه وجدهم يغامرون دون وجود فرصة في النجاح، لكنه خرج لمواكبتهم خارج
 المدينة، فحملت إليه أنباء وجود عبيد الله بن زياد في الرقة على رأس جيش
 ضخم، وبصحبته خمسة من كبار قادة الأمويين، وهم الحصين بن نمير السكوني

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٢/٧).

(٢) راجع الفتوح لابن الأعمش الكوفي ص (٢٦٠).

(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٢/٧ - ٧٤)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٥/٤).

وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وأدهم بن محرز الباهلي وربيعه بن مخارق الغنوي وجبله بن عبد الله الخثعمي^(١).

وأخذ زفر يلحّ على ضيوفه بالتروّي والرجوع إلى قرقيسيا لتوحيد الجبهة، إلا أن التوابين لم يهتروا لأنباء ذلك الجيش الضخم وأصروا على متابعة المسير، فقد وطّنا أنفسهم على الشّهادة طوال خمس سنين، لكن زفر الذي يس من إقناعهم بالرجوع نصحهم نصيحة عسكريّة مهمّة.. وقال لهم: "إني للقوم - الأمويين - عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم واد، أحب أن يحوطكم الله بالعافية، إن القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردية، فاجعلوا المدينة في ظهوركم، ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطووا المنازل، فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنوهم، فإنهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا إليهم فيصرعوكم، ولا تصغوا إليهم، فإني لا أرى معكم رجالة ومعهم الرجالة والفرسان وبعضهم يحمي بعضاً، ولكن ألقوهم في الكتائب والمقانب، ثم بثوها فيما بين يمينتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كل كتبية أخرى إلى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتبيتين رحلت الأخرى فنفست عنها، ومتى شاءت كتبية ارتفعت ومتى شاءت كتبية انحطت، ولو كنتم صفاً واحداً فزحفت إليكم الرجالة فدفعتكم عن الصف انتفض وكانت الهزيمة^(٢).

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٣/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٥/٤).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٣/٧ - ٧٤)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٦/٤).

وكانت نصائح زفر منهجاً سديداً لجيش التوآيين ، فساروا في إتجاه عين الوردة حسب الخطة حتى وصلوها واستراحوا قليلاً ، وأخذ سليمان رحمته الله في تنظيم المقاتلين إستعداداً لمواجهة الجيش القريب ، وقسم مقاتليه إلى مجموعات صغيرة تقوم بالهجمات على أطراف الجيش الأموي لتصديعه وهزّه.

معركة عين الوردة

أصبح الإشتباك وشيكاً بين الطرفين ، ووقف سليمان رحمته الله بين رفاقه خطيباً قُبيلَ المعركة ليذكّرهم بأساسيات الحركة ويضع الخطة البديلة إذا أصيب هو أو أحد قادته ، فقال : " .. فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ولقاء الله مُعذّرين ، فقد جاؤوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا ألقيتموهم فاصدقوهم واصبروا ان الله مع الصابرين . لا تقتلوا مُدبراً ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه أو يكون من قتلة إخواننا بالطّف (رحمة الله عليهم) فان هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل الدعوة "(١).

وشقت في ذات الوقت طلائع جيش بني أمية طريقها نحو قرقيسيا بقيادة عبيد الله بن زياد لتصفية معارضة العراق ، ولكن ثقة القائد كانت في غير محلّها هذه المرّة ، فهذه المهمة هي آخر مهامه في خدمة النظام الأموي ، ولما بلغت معلومات تحرّك التوآيين باتجاه عين الوردة حول سيره إليهم ليفترسهم بفتكه ، وتناقلت الرّسل في ذات الوقت خبر موت الخليفة مروان وتعيين ابنه عبد الملك في شهر

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٤/٧) ، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٦/٤).

رمضان سنة ٦٥ هـ، وواصل الجيش زحفه السريع إلى معسكر التوابين. وتواجهت القوتان غير المتكافئتين كماً وكيفاً، وبدى تفوق الأمويين الذين جاوزوا العشرين ألفاً واضحاً، وقد وُزعت عناصره إلى مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين، أما التوابون فقد شكّلوا خطأً واحداً للتصدي بقيادة سليمان، يعاونه عبد الله بن سعد بن نغيل على الميمنة والمسيب بن نجبة على الميسرة^(١).

وبدأ استعداد الجيش الأموي السريع لسحق هذا الجيش الصغير، وحاول ابن زياد مفاوضة التوابين على الإستسلام، وقبل سليمان محاورته أعدائه لوقف القتال مُشترطاً شرطاً واحداً، وهو تسليمه عبيد الله وقتلة الإمام الحسين عليه السلام^(٢). وقوبل شرطه بالرفض المحتم فأصبحت الحرب وشيكة الوقوع، وبدأت المناوشات فعلاً، فتصدى أربعمئة فارس بقيادة المسيب للأمويين فأوقعوا فيهم هزيمة قاسية، وفقد الجيش الأموي الكثير من رجاله رغم التفاوت الكبير بين القوتين، ويرجع ذلك لمستوى الحماس الملتهب عند التوابين ولوقوع الاختلاف بين شرحبيل والحصين على القيادة العليا للجيش الأموي^(٣).

وكان ذلك إيذاناً بوقوع الحرب الفعلية، فاندفع التوابون من مواقعهم بقيادة سليمان بن صرد رضي الله عنه والتحموا مع قوات الحصين الأموية التي تفوقهم كثيراً في العدد في جمادي الأولى سنة ٦٥ هـ، وبدى وضع التوابين معزّزاً جداً ومعنوياتهم

(١) راجع تاريخ خليفة (٣٣١/١)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٥/٧).

(٢) راجع العراق في العصر الأموي ض (١٧٠)، وأنساب الأشراف للبلاذري (٢١٧/٥).

(٣) راجع البداية والنهاية (٢٥٣/٨)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٥/٧)، والكامل في

التاريخ لابن الأثير (٧٦/٤).

مرتفعة، وكانت نداءات سليمان رضي الله عنه تزيد من ضراوة المعركة: "يا شيعة آل محمد، يا من يطلبوا بدم الشهيد ابن فاطمة، أبشروا بكرامة الله عز وجل، فوالله ما بينكم ودخول الجنة والراحة من هذه الدنيا إلا فراق الأنفس والتوبة والوفاء بالعهد"^(١).

وعبر التوَّابون بعنف عن تخليهم عن الحياة واستعدادهم للقتل بتكسير أعمدة السيوف إبان المعركة، وتقدّموا إلى القتل بشجاعة خارقة، واستمرت المعارك على مدى ثلاثة أيام والتوَّابون يحققون نجاحات مذهلة على أطراف ومقدمات الجيش الأموي مما أربكه وأفقده كثيراً من مقاتليه.

وبدأ التوَّابون القتال في اليوم الأول بهجومٍ عنيف على طرفي الجيش الأموي، فراجع مهزوماً تاركاً وراءه الكثير من القتلى والجرحى، فخلّفت هذه الهزيمة الإستياء العميق في نفس ابن زياد وأفقدته السيطرة على أعصابه فاتهم بعض القادة بالتخاذل والتقصير^(٢).

واستؤنف القتال في اليوم الثاني وقد عزز الأمويون مواقعهم واستفادوا من أخطائهم، فانعدم التكافؤ بين القوتين بشكلٍ ظاهر، لكن حماس التوَّابين إلى الشهادة نسفَ عواملَ التفوق الأموي، وأُتخن الفريقان قتلاً وجراحاً دون نتيجة حاسمة لأيٍّ من الطرفين.

وكان اليوم الثالث هو الأهم في معارك عين الوردية، إذ أطبق الأمويون بكل

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٤/٨)، والحوارج والشيعة ص (١٩٥)، والفتوح لابن الأعمش الكوفي.

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٦/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٥٤/٨).

إمكانياتهم على التوايين بعد سقوط مقاتليهم في اشتباكات اليومين الماضيين، فأحيطوا من كل جانب بهم، ولم يضعف التوايين عنف العدو وشراسة الموقف، وظلوا متماسكين في جبهة واحدة يقاتلون قتال المستميت، وتحاشى عدوهم الإلتحام المباشر بهم، فاعتمد الأمويون على السهام في النيل منهم، وتمكنوا بذلك من كسر شوكتهم حتى تفتتت قوتهم^(١).

وراح صوت القائد سليمان عليه السلام يدوي وسط المعمة ويخترق القلوب:

"عباد الله، من أراد البكور إلى ربه، والتوبة من ذنبه، والوفاء بعهده فإلي"^(٢).

وهذه آخر الكلمات التي صدرت من القائد قبل أن يفد على الإمام الحسين عليه السلام وينظم في أصحابه البررة عليهم السلام، ولما أوشك على الشهادة رماه يزيد بن الحصين بسهم فأوقعه قتيلاً، فاستشهد وله ثلاث وتسعون سنة^(٣).

ولما قتل سليمان عليه السلام تسلّم الرأية نائبه المسيّب بن نجبه عليه السلام الذي لم يختلف في صموده عن قائده، حتى وصفه بعض من رآه في المعركة: "ما رأيت أشجع منه إنساناً قط، ولا من العصابة التي كان فيهم، ولقد رأيت يقاتل قتالاً شديداً، ما ظننت أنّ رجلاً واحداً يقدر أن يبلى مثل ما أبلى، ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ"^(٤).

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٦/٧)، ومروج الذهب (٩٤/٣)، وإمبراطورية العرب ص (١٣٥).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٦/٧).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٥/٨).

(٤) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٧٦/٧ - ٧٧).

وسرعان ما سقط المسيب رضي الله عنه صريعاً، وتبعه بقيّة القوادم وأكثر المقاتلين، وانتهت القيادة إلى رفاعه بن شداد، فأصدر أوامره سرّاً للبقية الباقية بالانسحاب، إلا أنّ فئة قُدّرت بمئة وثلاثين مقاتلاً أصرت على الشهادة، فظلت تقاتل حتى أُبديت، وانسحب الباقون تحت جُح الظلام، فقد شكّل القائد فرقة من سبعين فارس لإشغال العدو حتى يتم الانسحاب، وأمر بهدم الجسور وراء المقاتلين.. وتم التراجع بنجاح، واستطاع باقي التوابين الانسحاب عن ميدان المعركة، وصاروا في أمان من مطاردة الأمويين^(١).

وعاودت الأبطال المنسحبين ذكريات القتال وحركتهم شعوراً مضاعفاً بالرغبة في الثأر، وتجدد شعورهم بالذنب حيال ما جرى، ففكروا بمعاودة القتال حتى الشهادة، فتمكن القائد من إقناعهم بالانسحاب للكوفة^(٢).

وكانت رحلة العودة مليئة بالمتاعب، وكان فيهم الجرحى، وحاول أمير قرقيسيا التّخفيف عنهم بإرسال الغذاء والأطباء لما بلغوه، فأقاموا عنده ثلاثة أيام وانصرفوا بعدها إلى هيت، وتفجرت أحزانهم مجدداً حين التقوا إخوانهم القادمين من المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان وهم يزحفون للقتال معهم، لكنهم وصلوا متأخرين، فكان اللقاء حزيناً جداً، ولم يخفف حزنه إلا افتراقهم عائدين إلى مدنهم^(٣).

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٤/٨)، وإمبراطورية العرب ص (١٣٦).

(٢) راجع إمبراطورية العرب لجون جلوب ص (١٣٦).

(٣) راجع الفتوح لابن الأعمش الكوفي، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٨٠/٧)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٨/٤).

ورجع التوابون إلى الكوفة وكانت أخبار بطولاتهم قد سبقتهم إليها، والناس بين مُعجَب وحزين على رحيل نُخبة الشيعة وأعيانها، فما شارفوا المدينة حتى هرع الناس لاستقبالهم، ويقدمهم الأمير الزبيرى.

الظهور الثاني للمختار الثقفي

كان رجوع بقية التوابين هو الذي أشعل فتيل حماسة المختار وهو رازح وراء القضبان، فأرسل إليهم من سجنه: "أبشروا، فقد قضيتم ما عليكم، وبقي ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقي إن شاء الله".

ثمّ كاتب المختار القائد العائد مبشراً إياه بالنصر القريب، وعاهده على إكمال مسيرة سليمان والتوابين عليهم السلام، فهو الأجدر بتحقيق النصر والثأر عند نفسه، وكتب للعائدين منهم: "أما بعد، فمرحباً بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر ورضي فعلهم حين قتلوا، أما وربّ البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة إلاّ كان ثواب الله أعظم من الدنيا، إن سليمان قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، المقيد من الأوتار، فأعدّوا واستعدّوا وأبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين"^(١).

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٧٨/٤).

ويمكننا أن نقول أنّ المختار ظهر في الكوفة في وقت مناسب، إذ لا تزال فكرة الإنتقام قائمة في النفوس فزادها مصير التوّابين حُرقة وهيجاناً، إلاّ أنّ الجمهور ينتظر شعاراً مقنعاً للإنضواء تحته، وأهدافاً تحقّق البديل للأمويين ولا تكتفي بالإستماتة والشّهادة، وكان المختار يصبو لتحقيق البديل !!

واستطاع الشيعة توظيف نتائج معارك التوّابين لصالح قضيتهم بحنكة، مسجّلين الموقف كنجاح سياسي لهم، لأنّ الحركة قد بلغت غاياتها المطلوبة، مضيئة صفحة مشرقة من النضال إلى قائمة مكارمهم، فرغب جمهور الكوفة بالثورة بعد تعميق كراهية النّظام الأمويّ وأصبحت مسرحاً للتحرك ضدّ النظام.

وقد أدّى غياب رموز الشيعة بعد استشهادهم إلى فراغ الزعامة، في عهد يصعب فيه الإتصال بالإمام علي بن الحسين عليه السلام.. وهو ظرف ساعد المختار في بسط نفوذه في القلوب، فتحرك من بين قضبان المعتقل وكتب لصهره عبد الله بن عمر ليتوسّط مجدداً عند أمير الكوفة ليفرّج عنه.

وتم إخلاء سبيله بشرط تجميد نشاطاته السياسية، ولكنّه لم يلتزم بذلك وسُرعان ما سخر من شروطهم، وقال: " ما أحققهم حين يرون أنّي أفي لهم بأيمانهم هذه، أما حلفي لهم بالله فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير وأكفر يميني، وخروجي عليهم خير من كفي عنهم" (١).

وصادف أن غادر أمير الكوفة قصر الإمارة معزولاً، فتحلّل المختار تلقائياً من

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٩٤/٧).

عهوده معه ، إذ لاحظ ابن الزبير أنّ في عامله ضعفاً لا يناسب خطورة المرحلة ، فعين مكانه عبد الله بن مطيع القرشي وهو من أشد الناس ولاءً له^(١).

وخرج المختار من سجنه ليواجه الأحداث ، ولم يتردد في اتخاذ موقف التحرك قبل رصد الوالي الجديد لنشاطاته ، فأعلن نفسه ثائراً باسم محمد بن الحنفية رحمته الله وادّعى أنّه اتفق سراً معه على الدعوة له في الكوفة ، فشكك بعض أهل الكوفة في هذا الأمر ، وانتدبوا وفداً لمقابلة ابن الحنفية رحمته الله للوقوف على حقيقة الزعم ، لكنّه لم يعطهم جواباً حاسماً في ذلك الظرف العصيب ، بيد أنّه بارك حركته ، فقال للوفد الكوفي : " إنا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه " ^(٢).

ويبدو أن المختار كان قد اتصل بالإمام علي بن الحسين عليهما السلام وباحثه بأمر الدعوة له في العراق ولم يلق استجابة منه ، فانصرف إلى محمد بن الحنفية رحمته الله ، وأمّيل شخصياً إلى مباركة الإمام عليهما السلام لحركته رغم التحفظات ، فهو في ظرف يصعب عليه مباركة مثل ذلك علناً ، ولا أظنّ أنّ ابن الحنفية رحمته الله يستقل بمباركته حركة المختار دون الرجوع لإمام زمانه عليهما السلام ، وإنّ موقفه عليهما السلام بعد ظفر المختار ينمّ عن مباركة لحركته بل يدلّ على غاية الرضا.

وعلى كلّ حال ، فإنّ شيعة الكوفة تفاعلوا مع موقف ابن الحنفية رحمته الله من المختار رغم عدم وضوحه ، وشهدوا تحولاً نحو المختار ، فتصدّر الزعامة بعد فرض نفسه حتّى على رموز الكوفة ، ووجد الكلّ فيه القيادة الصالحة لمتابعة نشاط

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٩٠/٧).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٥/٨).

الحركة، فانتشرت الحملات الدعائية في الكوفة وأحيائها لكسب تأييد الناس للمختار والبيعة له^(١).

وتردّد إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي رحمته الله في الإنضمام لجانبه - وهو أحد كبار شيعة الكوفة المعروفين بشدّة ولائه للبيت العلوي - وأُخْمِنَ أن يكون إبراهيم يطمح إلى وضوح الرؤية في شرعية الحركة، وقد كان ممتنعاً عن الدّخول حتّى في جماعة التّوّابين، وكان على اتّصال مباشر بابن الحنفية رحمته الله، لكنّ ذلك لم يمنع المختار من الإلحاح عليه حتّى إقناعه بالإعتراف به والبيعة له، ويرجّح أن يكون ذلك بإيحاء من ابن الحنفية رحمته الله^(٢).

ويعني انضمام إبراهيم إلى المختار مكسباً كبيراً لهذه الحركة، وسرعان ما صار قائدها العسكري الأول، وأحد أركان الانقلاب المزمع ضد الحكم الزبيري في الكوفة، وقد حدّدت ساعة الوثبة في يوم معيّن من سنة ٦٦ هـ، وكانت التقارير ترتفع لوالي الكوفة الجديد من قائد شرطته مُحَدَّرَةً من إنقلاب يعدّه المختار، ونشر الوالي رجاله في بعض أحياء الكوفة لإفشال المخطّط، إلّا أنّ ذلك ساهم في تعجيل انفجار ثورة المختار وتقديم موعدها يومين^(٣).

فقد كان ابن الأشتر في طريقه لمنزل المختار ومعه مئة من جنده فاعترض طريقه صاحب الشرطة، فطعنه إبراهيم برمح طعنة أودت بحياته، وكانت هذه

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٤/٨).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٨/٨)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (٩٨/٧ - ٩٩).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٩١/٤) و (٢٦٦/٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٨٩/٤)، وتاريخ الأمم والملوك للطبري (١٠٠/٧).

الحادثة إشارة بدء الحركة، فاستولى المختار وابن الأشر على الموقف وهزم الوالي مُغادراً قصر الإمارة متخفياً، وتقهقر داعموه بسقوط إمارته^(١).

ونجحت ثورة المختار الثَّقفي، وتحققت أهدافه باستلام الحكم في الكوفة، دون إسرار في إراقة الدماء، وقد طلب بعض الأشراف الأمان فأجيبوا إليه، وأخرج الوالي من مخبئه مُبعداً إلى البصرة، فخضعت الكوفة بكل فئاتها للمختار، فاعتلى منبر جامعها ليقول: "تبايعوني على كتاب الله، وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلّين، والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من سلمنا، والوفاء ببيعتنا، لا نقيلكم ولا نستقيلكم"^(٢).

غير أنّ المختار الذي استولى على السلطة بهذه السهولة واجه صعوبة في الإحتفاظ بها وسط دائرة الصراعات في العالم الإسلامي، والتي نقلت صراعها بكلّ معناه إلى العراق، فأنظار الأمويين مركّزة على تطوّر أحداث الكوفة، وابن الزبير الذي يسيطر على جنوب العراق يراقب التطوّرات.. وقد بايع الأشراف المختار مكرهين فلزم الحذر منهم، ولم يفتقر المختار إلى الكياسة والحزم فتظفّرت مخططاته بالتّجّاح في ذلك الحين.

إلا أنّ الذي أثقل على المختار هو خبر وصول عبيد الله بن زياد بجيشه إلى الموصل، فبدأ في الإستعدادات العسكرية لمواجهة أشد أعدائه خصومة، وفي سبيل تأخير زحف العدو للكوفة أرسل جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل فتلقّى طلائع الجيش

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٠٠/٧ - ١٠٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٦٧/٨).

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٨/٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٩٥/٤)، وتاريخ

الأمم والملوك للطبري (١٠٨/٧ - ١٠٠).

الأموي وتمكّن بعد يومين من تحقيق إنتصار كبير، لكن وفاة القائد المسن المريض في ليلة نصره قد أثّرت تأثيراً سيئاً على معنويات الجنود، فأخذوا في التراجع إلى الكوفة.. فاقتمت الكوفة أخبار انسحاب الجند مضمومٌ إليها إشاعات هزيمة الجيش، فأمر المختار قائده ابن الأشتر بالتوجه في سبعة آلاف مقاتل ليحول دون توغلّ ابن زياد في العراق^(١).

وبخروج ابن الأشتر من الكوفة كان خروج الأمور عن توازنها، وكأنّ وجوده كان عائقاً دون تفرّق أهلها، فانفض الأشراف مع خلو الكوفة منه، وشجّعهم على ذلك تضارب مصالحهم الإقتصادية والسياسية وخوفهم من فتك المختار، فهو الذي لا ينسى قتلة الإمام الحسين عليه السلام والمعينين عليه، فتأمروا مع بعض فئات المجتمع الكوفي والموالي في سبيل إسقاط المختار^(٢).

وانطلقوا مسلّحين وحاصروا قصر الإمارة، وخاض أنصار المختار في سبيل الذبّ عن قائدهم معارك ضارية، وتمكّن المختار من الصمود ولم يفقد توازنه، وفاوضَ المتمردين كسباً للوقت، وكتب لابن الأشتر يُعلمه بشأن المؤامرة^(٣).

وجرّ ابن الأشتر أذياله للكوفة مُسرِعاً، فبلّغت حماسة الشيعة بعودته أقصى درجاتها، وقد ارتفعت صرخات التوابين "يا لثارات الحسين" مما أثار الحفائظ

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١١٣/٧ - ١١٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٦٩/٨)، والخوارج والشيعة ص (٢١٨).

(٢) راجع تاريخ العرب السياسي ص (١١٧).

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير (٢٧٠/٨)، والكامل في التاريخ لابن الأثير (٩٨/٤).

على الأشراف المشاركين في مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، فأتاحت الأجواء الفرصة لإسراع المختار في الثأر من قتلة الإمام عليه السلام وتتبعهم في أنحاء العراق^(١).

فوفق الله تعالى المختار لهذا التوفيق العظيم ، وشفى الله بمرسته صدور المؤمنين ، وأدخل الراحة على أهل البيت عليهم السلام ، فظفر بالكثيرين من قتلة سيد الشهداء عليه السلام فأوقع فيهم قتلاً ، وفيهم عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوش^(٢).

واستطاع المختار بقوة ابن الأشر أن يخذل تمرّد الأشراف ، ثم شقّ ابن الأشر طريقه مجدداً إلى الموصل ليواجه جيش عبيد الله بن زياد ، واشتبك الجيشان عند نهر الخازر في ملحمة عظيمة ، واستطاع ابن الأشر أن يشكل فرقة تمكّنت من اختراق العدو مستهدفة عبيد الله بن زياد لقتله ، وقد نجحت في قتله وقتل كبار قوّاده ، مما أدّى إلى تشتت الفرار وهزيمة الجيش الأموي^(٣).

وكان وقع مقتل ابن زياد على النفوس عظيماً ، وبلغ صدى هلاكه لشيعه العراق والحجاز فاستقبلوه بحالة من البهجة والسّرور ، واحتز ابن الأشر رأس ابن زياد وحمله إلى الكوفة ليضعه في نفس المكان الذي وضع فيه رأس الإمام الحسين عليه السلام عندما كان ابن زياد والياً على الكوفة!!

وبلغ المختار بذلك قمة نجاحه ومجده ، وأفاق المختار من سكرة النصر حين فوجئ بمصعب بن الزبير يزحف بجيشه نحو الكوفة ، وكان قد أرسل من قبل أخيه

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٢٠/٧).

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٢٠/٧) ، وامبراطورية العرب ص (١٥٣ - ١٥٤).

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٤٤/٧).

أميراً على البصرة سنة ٦٧ هـ^(١).

واستعدّ المختار لمواجهة مصعب بإمكانيات محدودة، وكان ابن الأشر لا يزال بالموصل، فاشتبك الجيشان في حروراء، وبرز تفوق الزبيريين بشكل ملحوظ، وتراجع أنصار المختار فتتبعهم جنود ابن الزبير، وبلغت أنباء هزيمتهم للمختار وكان معتصماً في قصر الإمارة.

فخرج يطلب الموت بعد اشتداد وطأة الحصار، وقال لأصحابه وهو خارج إلى القتال: "إنّ الحصار لا يزيدنا إلاّ ضعفاً، فانزلوا بنا نقاتل حتى الليل ونموت كراماً" فقتل بعد مقاومة بطوليّة، فرحمة الله عليه^(٢).

ولم تقف تداعيات أصداء مقتل الإمام الحسين عليه السلام بعد كلّ هذه الأحداث، وظلّت الكوفة مسرحاً للكبت والنشر، وظلّ قصر الإمارة هذا يشهد رؤوس القادة حيث شهد رأس الإمام الحسين عليه السلام.. وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسين عليه السلام بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثمّ رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، فقيل له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: إثنتا عشرة سنة!!^(٣).

ومضى المختار رحمه الله بعد أن دحرج رؤوس قتلة الإمام الحسين عليه السلام بين يديه

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري (٨٠/٧، ٨١)، والكمال في التاريخ لابن الأثير (١١٢/٤).

(٢) راجع الخوارج والشيعة ص (٢٢٩)، والكمال في التاريخ لابن الأثير (١١٣/٤) و (٢٨٨/٨)، وقد استفدت في سرد هذه القصة الكاملة من جملة من المصادر التّاريخيّة، وقد استنعتُ بكتاب

التوابين تأليف الدكتور إبراهيم بيضون في سرد رواية الأحداث وتسلسلها كاملة.

(٣) راجع المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (١٣٤/٢).

وشفى في قتلهم صدور المؤمنين ، ففي أمالي الطوسي عن المدائني أنّ ابن الأشر
بعث برأس ابن زياد إلى المختار وأعيان من كان معه ، فقدم بالرؤوس والمختار
يتغدى ، فألقيت بين يديه ، فقال : " الحمد لله ربّ العالمين.. وضع رأس الحسين بن
علي عليه السلام بين يدي ابن زياد وهو يتغدى ، وأتيت برأس ابن زياد ، وأنا أتغدى !"
قال : وانساب حيّة بيضاء تخلّل الرؤوس حتى دخلت في أنف ابن زياد
وخرجت من أذنه ، ودخلت من أذنه وخرجت من أنفه ، فلمّا فرغ المختار من
الغداء قام فوطأ وجه ابن زياد بنعله ، ثم رمى بها إلى مولى له ، وقال : إغسلها
فإني وضعتها على وجه نجس كافر ، وخرج المختار إلى الكوفة ، وبعث برأس ابن
زياد ورأس حصين بن نمير ، ورأس شرحبيل بن ذي الكلاع إلى محمد بن الحنفية
بمكة وعلي بن الحسين عليه السلام يومئذ بمكة .

وكتب إليه معهم : " أما بعد ، فإنني بعثت أنصارك وشيعتك إلى عدوك
يطلبونه بدم أخيك المظلوم الشهيد ، فخرجوا محتسين محنقين أسفين ، فلقوهم
دون نصيين ، فقتلهم ربّ العباد ، والحمد لله ربّ العالمين الذي طلب لكم الثأر ،
و أدرك لكم رؤساء أعدائكم فقتلهم في كل فج وغرقتهم في كل بحر ، فشفى بذلك
صدور قوم مؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم " .

وقدموا بالكتاب والرؤوس إليه ، فبعث برأس ابن زياد إلى علي بن الحسين
عليه السلام فأدخل عليه وهو يتغدى ، فقال علي بن الحسين عليه السلام : أدخلت على ابن
زياد (لعنه الله) وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه ، فقلت : " اللهم لا تمتني حتى
تربني رأس ابن زياد وأنا أتغدى " فالحمد لله الذي أجاب دعوتي ، ثم أمر فرمي به .
فحمل إلى ابن الزبير ، فوضعه على قصبة فحرّكتها الريح فسقط ، فخرجت

حيّة من تحت السّتار فأخذت بأنفه، فأعادوا القصبة فحرّكتها الريح فسقطت فخرجت الحية، فأزمت بأنفه، ففعل ذلك ثلاث مرات، فأمر ابن الزبير فألقي في بعض شعاب مكة.

قال: وكان المختار رضي الله عنه قد سُئل في أمان عمر بن سعد بن أبي وقاص فأمنه على أن لا يخرج من الكوفة، فإن خرج منها فدمه هدر، فأتى عمر بن سعد رجلاً فقال: إني سمعت المختار يحلف ليقتلن رجلاً والله ما أحسبه غيرك، فخرج عمر حتى أتى الحمام، فقيل له: أترى هذا يخفي على المختار!! فرجع ليلاً فدخل داره، فلما كان الغد غدوت فدخلت على المختار وجاء الهشيم بن الأسود فقعد، فجاء حفص بن عمر بن سعد، فقال للمختار: يقول لك أبو حفص أين لنا بالذي كان بيننا وبينك؟

قال: اجلس، فدعا المختار أبا عمرة فجاء رجل قصير يتخشخش في الحديد، فسارّه ودعا برجلين.. فقال: إذهبوا معه، فذهب، فوالله ما أحسبه بلغ دار عمر بن سعد حتى جاء برأسه.

فقال المختار لحفص: أتعرف هذا؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون!!

قال: يا أبا عمرة، ألحقه به، فقتله.

فقال المختار رضي الله عنه: عمّر بالحسين، وحفص بعلي بن الحسين، ولا سواء.

واشدد أمر المختار بعد قتل ابن زياد، وأخاف الوجوه.. وقال: لا يسوغ لي طعام ولا شراب حتى أقتل قتلة الحسين بن علي عليه السلام وأهل بيته، وما من ديني أترك أحداً منهم حيّاً، وقال: أعلموني من شرك في دم الحسين عليه السلام وأهل بيته؟ فلم يكن يأتونه برجل فيقولون إن هذا من قتلة الحسين أو ممن أعان عليه إلا قتله.

وبلغه أن شمر بن ذي الجوشن (لعنه الله) أصاب مع الحسين إيبلاً فأخذها، فلما قدم الكوفة نحرها وقسم لحومها، فقال المختار: أحصوا لي كل دار دخل فيها شيء من ذلك اللحم فأحصوها، فأرسل إلى من كان أخذ منها شيئاً فقتلهم وهدم دُوراً بالكوفة.

وأُتِيَ المختار بعبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن الهيثم البداني من كندة وحمل بن مالك المحاربي فقال: يا أعداء الله، أين الحسين بن علي؟ قالوا: أكرهنا على الخروج إليه!! قال: أفلا مننتم عليه وسقيتموه من الماء؟ وقال للبداني: أنت صاحب بُرُوسِهِ، لعنكَ اللهُ؟ قال: لا. قال: بلى!!

ثم قال: اقطعوا يديه ورجليه ودعوه يضطرب حتى يموت فقطعوه، وأمر بالآخرين فضربت أعناقهما، وأُتِيَ بقراد بن مالك وعمر بن خالد وعبد الرحمن البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني فقال لهم: يا قتلة الصالحين، ألا ترون الله بريء منكم، لقد جاءكم الورد بيوم نحس، فأخرجهم إلى السوق فقتلهم.

وبعث المختار معاذ بن هانيء الكندي وأبا عمرة كيسان إلى دار خوئي بن يزيد الأصبحي، وهو الذي حمل رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى ابن زياد، فأتوا داره فاستخفى في المخرج، فدخلوا عليه فوجدوه قد ركب على نفسه قوصرة، فأخذوه وخرجوا يريدون المختار، فتلقاهم في ركب، فردّوه إلى داره وقتله عندها وأحرقه.

وطلب المختار شمر بن ذي الجوشن، فهرب إلى البادية، فسعى به إلى أبي عمرة فخرج إليه مع نفر من أصحابه، فقاتلهم قتالاً شديداً فأثختته الجراحة، فأخذته أبو عمرة أسيراً وبعث به إلى المختار، فضرب عنقه وأغلى له دهنا في قدر

فقدفه فيها فتفسّخ، ووطأ مولى لآل حارثة بن مضرب وجهه ورأسه.
ولم يزل المختار يتبع قتلة الحسين عليه السلام وأهله حتى قتل منهم خلقاً كثيراً
وهرب الباقون، فهدم دورهم، وقتلت العبيد مواليهم الذين قاتلوا الحسين عليه السلام
وأتوا المختار فأعتقهم^(١).

وفيه بسنده إلى المنهال بن عمرو، قال: دخلت على علي بن الحسين عليه السلام
منصرفي من مكة فقال لي: يا منهال، ما صنع حرملة بن كاهل الأسدي؟ فقلت:
تركته حياً بالكوفة؟ قال: فرفع يديه جميعاً ثم قال عليه السلام: اللهم أذقه حرّ
الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار!!

قال المنهال: فقدمت الكوفة وقد ظهر المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان لي
صديقاً، فكنت في منزلي أياماً حتى انقطع الناس عني وركبت إليه، فلقيته خارجاً
من داره، فقال: يا منهال لم تأتنا في ولايتنا هذه، ولم تهنئنا بها، ولم تشركنا
فيها، فأعلمته أنني كنت بمكة، وأني قد جئتكم الآن.

وسايرته ونحن نتحدث حتى أتى الكناس، فوقف وقوفاً كأنه ينظر شيئاً، وقد
كان أخبر بمكان حرملة بن كاهل، فوجه في طلبه، فلم يلبث أن جاء قوم يركضون
وقوم يشتدون، حتى قالوا: أيها الأمير، البشارة، قد أخذ حرملة بن كاهل، فما
لبثنا أن جيء به، فلما نظر إليه المختار قال لحرملة: الحمد لله الذي مكّنني منك.

ثم قال: الجزار الجزار، فأُتي بجزار. فقال له: إقطع يديه، فقطعتا، ثم قال
له: إقطع رجله، فقطعتا. ثم قال: النار النار، فأُتي بنار وقصب، فألقي عليه،

(١) راجع أمالي الشيخ الطوسي ص (٢٤٤)، وبحار الأنوار (٣٣٧/٤٥).

فاشتعل فيه النار. فقلت: سبحان الله!! فقال لي: يا منهال، إن التسييح لحسن، فقيم سبحت!!

فقلت: أيها الأمير، دخلت في سفرتي هذه منصرفي من مكة على علي بن الحسين عليه السلام فقال لي: يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟ فقلت: تركته حياً بالكوفة، فرفع يديه جميعاً فقال: اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار!! فقال لي المختار: أسمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول هذا؟ فقلت: والله لقد سمعته يقول هذا.

قال: فنزل عن دابته، وصلى ركعتين، فأطال السجود، ثم قام فركب وقد احترق حرملة، وركبت معه وسرنا فحاذيت داري، فقلت: أيها الأمير، إن رأيت أن تشرفني وتكرمني وتنزل عندي وتحرم بطعامي، فقال: يا منهال، تُعلمني أن علي بن الحسين عليه السلام دعا بأربع دعوات فأجابه الله على يدي ثم تأمرني أن آكل، هذا يوم صوم شكراً لله عز وجل على ما فعلته بتوفيقه، وحرملة هو الذي حمل رأس الحسين عليه السلام^(١).

أصداء المقتل وأهل البيت عليه السلام

هذه صورٌ تمثل تداعيات أصداء مقتل الإمام الحسين عليه السلام على الصّعيد البشري، وكان الأثر الكبير للمقتل من نصيب عائلته وأسرتة الكريمة التي شهدت

(١) راجع أمالي الشيخ الطوسي ص (٢٣٨)، وبحار الأنوار (٤٥/٣٣٢)، وقول العرب تحرم بطعامة، ذلك لأن العرب إذا أكل رجل منهم من طعام غيره حصلت بينهما حرمة وذمة يكون كل منهما آمناً من أذى صاحبه.

الوقعة بتفاصيلها المشجية، وفيهم نساء الإمام عليه السلام وبناته وعياله وأخته الحوراء زينب عليها السلام، وعلى رأس تلك القائمة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فهو الذي امتشق حسام الصبر وحمل المسؤولية فور سقوط والده صريعاً على صعيد كربلاء، خصوصاً وإنه الأعراف بمقام أبيه عليه السلام وعظمة منزلته، فتضاعف جزعه لذلك، وقد شهد تلك الوقائع بنفسه، وهي كما تراها لا زالت مفجعة بعد كل هذه القرون الماضية !!

وشهد الإمام عليه السلام أحزان البيت العلوي، وكان في مقدمة الموكب الذي ضمّ كرائم الوحي وربائب الرسالة، وعانين بنفسه سبيها وتقريعها، ودخل معها في مجالس الجائرين، وشهد أعظم المصائب، وجال بثقل الإمام الحسين عليه السلام بعد قتله مُرغماً من بلد إلى بلد، وقد أمضته العلل والهموم والغموم.

وشهد أحزان النسوة الطاهرات، وعانين النكسة التي ألمت بهذا البيت الرفيع، ولم يمرّ أهل بيت في تاريخ الدنيا بحادث يشبه هذا الحادث الذي مرّ على أهل بيت النبي ﷺ، ولم تشهد الدنيا شبيهاً لهذه المأساة، فهو مصرع أمة !! وكان عليه السلام أحقّ الناس بالتوجّع والتفجّع والجزع على أبيه عليه السلام فهو أكثر الناس معرفة بمقامه السامي.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما امتشطت فينا هاشمية، ولا اختضبت، حتى بُعث إلينا المختار برؤوس الذين قتلوا الحسين عليه السلام (١).
فبعد رحلة مُضنية ومعاناة صعبة خلف فيها جسد أبيه عارياً على رمضاء

(١) راجع بحار الأنوار (٣٤٤/٤٥)، ورجال ابن داود ص (٥١٣)، ورجال الكشي ص (١٢).

الطّف ، ليرحل مع العائلة للمثول بين يدي عبيد الله بن زياد في الكوفة ، ومن الكوفة إلى الشّام حيث المثول بين يدي الطّاغية يزيد بن معاوية ، ومن الشّام إلى كربلاء حيث تقضي النسوة أوطار التفجّع ووداع الأحبة.. عاد إلى المدينة المنورة وقد خلّت ربوعها من خامس أصحاب الكساء عليه السلام فأظلمت بفقده ، فأرسل يشرأ لينعى حسيناً عليه السلام لأهل يثرب ، قائلاً :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدارُ
الجسم منه بكربلاء مُضرّجٌ والرأس منه على القنّاة يدارُ

وشكّلت عودة الإمام عليه السلام إنعطافة في أسلوب الخطاب العلوي وتجديد الرؤية تجاه الأحداث المتسارعة والمستجدّات في الساحة الإسلاميّة ، والكلّ يترقب التكليف الشرعي المنبثق عن بيت النبوة والإمامة ، وبرجوعه تبدأ مرحلة مهمّة من ردّة الفعل المدروس المهياً لها جيّداً ، لتأسيس مظاهر الدّين بصورة تتماشى مع الحدث الضخم الجديد ، ولا بدّ من تأصيل شعائر الحزن والجزع ليعرف القاصي والداني قصّة الإمام الحسين عليه السلام ويتلمّس أبعادها ، ولا يبقى لجاهل عذرٌ على مرّ الأزمان والعصور !!

لقد عاد للبكاء والحزن والجزع على سيّد الشهداء عليه السلام ممزوجاً في كل نشاطاته المرتقبة ، فانغمست سيرته بالحزن ، وانعكس ذلك على الدّعاء ، فكانت الصحيفة السجّادية المعبر عنها بزبور آل محمد عليه السلام ، وعلى تلاوة القرآن ، فلم يُر في الأئمة عليهم السلام أجمل منه صوتاً.. فهو إمام الحزن الحسيني.

ويثير التعجّب والنظر خبر اعتزاله عليه السلام عن النّاس بعد مقتل أبيه وكرهه لمخالطتهم بعد مصرع أبيه ، فقد روى السيّد بن طاووس رحمته الله مُسنداً إلى الإمام

الباقر عليه السلام أنه قال: كان أبي علي بن الحسين عليه السلام قد اتخذ منزله من بعد مقتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام بيتاً من شعر، وأقام بالبادية، فلبث بها عدة سنين، كراهية لمخالطة الناس وملاقاتهم، وكان يصير من البادية بمقامه بها إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه عليهما ولا يشعر بذلك من فعله^(١).

ويبدو أنّ الإمام عليه السلام كان في شغل شاغل عن الناس بعد مقتل أبيه عليه السلام، وربّما قصد البعد عن السّاحة السّياسيّة لعلمه بتداعيات وأصداء مقتل أبيه عليه السلام التي ستتهزّب بها البلاد، ولا بدّ أن تنعكس إرهاباتها على الحجاز والعراق ومراكز الحدث المهمّة، ففضّل أن يكون بعيداً عنها ليتمكّن من تشييد شعائر الحزن الحسينيّة الخالدة، ويعرب عن قمّة حزنه وجزعه على أبيه عليه السلام بالإعتزال، وهي رسالة يفقهها العالم الإسلامي وتغنيه عن مئات الخطب الحماسيّة الكفيلة بتأجيج المشاعر.

(١) فرحة الغري ص (٤٣)، وإقبال الأعمال ص (٤٧٠)، وبحار الأنوار (٢٦٦/٩٧)، وفي نفس الخبر: قال محمد بن علي عليه السلام فخرج عليه السلام متوجّها إلى العراق لزيارة أمير المؤمنين وأنا معه، وليس معنا ذو روح إلّا الناقتين، فلما انتهى إلى النّجف من بلاد الكوفة وصار إلى مكان منه فبكى حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا أمين الله في أرضه. إلى آخر الزيارة المعروفة.

قال جابر: قال لي الباقر عليه السلام: ما قال هذا الكلام ولا دعا به أحد من شيعتنا عند قبر أمير المؤمنين عليه السلام أو عند قبر أحد من الأئمة عليهم السلام إلّا رفع في درج من النور وطُبع عليه بخاتم محمد ﷺ وكان محفوظاً له حتى يسلم إلى قائم آل محمد عليه السلام فيتلقى صاحبه بالبشرى والتحية والكرامة إن شاء الله تعالى.

وخرج الإمام عليه السلام من عزلته ليكسر طوق الصّمت برفع راية شعائر الحزن، مركزاً لواء البراءة من الظالمين جنباً إلى جنب لواء الإمامة، متأسياً بذلك بجدته الصديقة الزهراء عليها السلام لما واصلت ليلاً بنهارها بالبكاء!

فروى أنّه عليه السلام بكى عشرين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله، إنني أخاف أن تكون من الهالكين!! قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) إنني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة^(١).

ولما قيل له: أما أن لحزنك أن ينقضي؟ فقال: ويحك، إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً فغيّب الله واحداً منهم فايضت عيناه من كثرة بكائه عليه واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حياً في الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني^(٢).

(١) راجع مناقب ابن شهر آشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (٢٨٠/١٢) و (١٥٥/٤٣) و (١٠٨/٤٦ و ١٠٩) و (٨٦/٧٩)، وأمالي الصدوق ص (١٤٠)، والخصال (٢٧٢/١)، وروضه الواعظين (١٧٠/١) و (٤٥٠/٢)، ووسائل الشيعة (٢٨٠/٣)، وكشف الغمّة (٤٩٨/١).

(٢) راجع مناقب ابن شهر آشوب (١٦٥/٤)، وبحار الأنوار (١٤٩/٤٥) و (٦١/٤٦ و ١٠٨) و (١٦١/٧٥)، والخصال (٥١٧/٢)، وأعلام الدين ص (٣٠٠)، واللّهوف ص (٢٠٩)، ومسكن الفؤاد ص (١٠٠) ووسائل الشيعة (٢٨٢/٣).

وروي في مناقب ابن شهر آشوب (١٦٦/٤)، وبحار الأنوار (١٠٨/٤٦): قيل إنه بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ إناء يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعاً، فقيل له في ذلك،

وروي في كامل الزيارات أنه أشرف مولى لعلي بن الحسين عليه السلام وهو في سقيفة له ساجد يبكي ، فقال له : يا علي بن الحسين ، أما أن لحزنك أن ينقضي ، فرفع رأسه إليه ، فقال : ويلك - أو ثكلتك أمك - والله لقد شكنا يعقوب إلى ربّه في أقلّ مما رأيت حين قال : ﴿يا أسفى على يوسف﴾ وإنه فقد ابناً واحداً ، وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبحون حولي .

وكان علي بن الحسين عليه السلام يميل إلى ولد عقيل ، فقيل : ما بالك تميل إلى بني

فقال : وكيف لا أبكي ، وقد مُنع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش . وقيل له : إنك لتبكي دهرك ، فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا !! فقال : نفسي قتلتها وعليها أبكي . وروي في الخصال (٢٧٢/١) ، وبحار الأنوار (٢٦٤/١٢) و (١٥٥/٤٣) و (١٠٩/٤٦) و (٨٦/٧٩) ، وأمالي الصدوق ص (١٤٠) ، ووسائل الشيعة (٢٨٠/٣) ، وكشف الغمّة (٤٩٨/١) مرفوعاً إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : البكاؤون خمسة ، آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين عليه السلام ، فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه أمثال الأودية ، وأما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له : ﴿تَاللّٰهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن ، فقالوا : إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل ، وإما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار ، فصالحهم على واحد منهما .

وأما فاطمة بنت محمد عليها السلام فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة ، وقالوا لها : قد آذيتنا بكثرة بكائك ، فكانت تخرج إلى المقابر ، مقابر الشهداء ، فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف . وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عشرين سنة ، أو أربعين سنة ، وما وُضع بين يديه طعام إلا بكى ، حتى قال له مولى له : جعلت فداك يا ابن رسول الله ، إنّي اخاف عليك أن تكون من الهالكين !! قال : ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني لذلك عبرة .

عمك هؤلاء دون آل جعفر؟ فقال: إني أذكر يومهم مع أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام فأرق لهم^(١).

وهذه حقبة تاريخية مهمّة في تاريخ الإمامة، تمثّل المفصل في إنعطافة الخطاب الديني إلى لحن الحزن، وتعبّر عن توجّه الأئمة عليهم السلام إلى بيان الدّموع بديلاً عن بيان الكلمة في الدّعوة، والهدف هو توظيف المصيبة الراتبية في تخليد الحزن وإيصاله إلى الأجيال القادمة، في رسالة تنطوي على أحزانهم عليهم السلام مضافاً إليها كلمتهم الطيبة.

وإذا كان وصول الكلمة الطيبة إلى الأجيال القادمة محفوظاً بالمصاعب، فإنّ وصول الدّمة بتأثيراتها العاطفية العاقلة وخلود الحزن صعبٌ مستصعب، إلا أنّ الإرادة الإلهية كانت فوق كلّ الإعتبارات، وهي التي ضمنت نداء العطاء الحسيني وتجدد الأثر الكبير، وجاء مسعى الأئمة الطاهرين عليهم السلام في هذا الإتجاه قوياً ومُحكماً، فتحقق ذلك الهدف..

سيبدو للقاريء الكريم بوضوح كيف التحمت الجهود وتوزّعت الأدوار فنجحت الثورة الحسينية، واحتلّ الإمام زين العابدين عليه السلام دور المكمل لقضية أبيه الشهيد عليه السلام، فلولا الشُّعلة التي أوقدها بأحزانه وآلامه لما وصلت إلينا جذوتها المشتعلة..

(١) راجع كامل الزيارات ص(١٠٧)، وجمار الأنوار ص(٤٦/١١٠)، ومستدرک وسائل الشيعة ص (٤٦٦/٢).

وهكذا فقد اتحدت أدوار الأئمة المتعاقبين عليهم السلام في إضرام وقدة الحزن والجزع كما مهد الإمام الحسن عليه السلام لها أيضاً في هدنته مع معاوية.. فكانت انطلاقة ثورة الحسينية محفوفة بجهود النبي ﷺ والحجج الطاهرين عليهم السلام جميعاً، سعيًا لتخليد القضية بتأسيس مظاهرها وتشديد أصدائها، وتعظيم شعائرها.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

